
ادواردو غاليانو
صيّاد القصص
قصص قصيرة
مكتبة بغداد
ترجمة
صالح علماني

صيّاد القصص

مجموعة قصصية

إدواردو غاليانو

ترجمة

صالح علماني

العنوان الأصلي للكتاب كما ورد في النسخة الأسبانية

EL CAZADOR DE HISTORIAS

EDUARDO GALEANO

صيّاد القصص

مجموعة قصصية

إدواردو غاليانو

تصميم الغلاف: خالد بوزنون

ISBN: 978-9948-09-540-8 :تدمك

الناشر: دار ورق للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2017، الإمارات



دار ورق للنشر والتوزيع

DAR WARAQ PUBLISHING AND DISTRIBUTION

T: +97142514405

Mob:+971506595950

P.O.Box: 91110 DUBAI, UAE

info@darwaraq.com

www.darwaraq.com

كلمة الناشر الأسباني

توفي إدواردو غاليانو يوم 13 نيسان/أبريل 2015. وفي صيف العام 2014 كنا قد أنهينا آخر تفاصيل إخراج كتاب «صياد القصص»، بما في ذلك صورة الغلاف التي اختارها، كما جرت العادة، هو نفسه. وهي صورة «مسخ بوينس آيرس» التي على غلاف الطبعة الأسبانية. وكان قد كرس عامي 2012 و2013 للعمل في هذا الكتاب. ونظراً إلى أن حالته الصحية لم تكن جيدة، فقد قررنا تأخير النشر، كوسيلة لحمايته من المشقات التي ترافق إطلاق كل كتاب جديد.

في الشهور الأخيرة من حياته، واصل ممارسة واحد من أكثر الأمور متعة له: كتابة وتنقية نصوص الكتاب واحداً واحداً. وكان قد بدأ بكتاب جديد، خلّف عدة قصص منه مكتوبة؛ وكان يرغب في تسمية الكتاب «خربشات». بعد وفاته، وحين صار بالإمكان العودة إلى خطة نشر «صياد القصص»، رجعنا كذلك

إلى ذلك المشروع الذي لم يكتمل، قرأنا قصصه ووجدنا أن العديد منها تتضمن الكثير من المشترك مع «صياد القصص» وأنها تستحق ضمها إلى الكتاب. ولهذا، حوَّلنا نحو عشرين قصة من «خربشات» إلى جزء من هذا الكتاب.

موضوع عدد منها هو الموت. لقد كان إدواردو غليانو على الدوام رجلاً متزناً، ربما يُشَرِّف بذلك جيناته الغَالِيَّة التي طالما تنصل منها، ولم يعتد الكلام بنبرة مهولة عن أمراضه وآلامه، حتى في الأزمنة الأخيرة. هذه الحفنة من النصوص تبدو كأنها أثر مما كان يتصوره أو يفكر فيه بشأن الموت. إنها نصوص بالغة الجمال والاتقان، رغبنا في ضمها، وبهذا أتاحت لنا إضافة قسم رابع إلى الكتاب الأصلي. وقد منحنا هذا القسم عنوان قصيدة كان هو نفسه قد وضعها كخاتمة للكتاب، وهي تختم بالفعل هذا العمل: «أردتُ، أريد، أتمنى».

باستثناء هذه الاضافات، احترمنا كافة تعليماته الهاجسية واللطيفة كالعادة.

ليس سهلاً وضع نقطة نهاية لهذه المهمة التي لم نكن فيها وحدنا. فقد قدم دانييل وينبيرغ تعليقات وملاحظات قيمة. وعملت غابرييلا فيغو وبقية طاقم دار النشر Siglo XXI خلال عمليات النشر الطويلة، مدفوعين بكل تأكيد بالمحبة الخاصة التي كانوا ومازالوا يكنونها لإدواردو.

أشكر هيلينا بيياّغرا على مساعدتها القيمة لمنح الشكل النهائي لـ «صياد الكلمات». لقد كان عملاً لطيفاً، لأنه عمل لقاء مع كاتب عزيز جداً، ولكنه كان في الوقت نفسه عملاً صعباً دون شك.

كارلوس ي. دياث

شكر

هذا الكتاب مهدى إلى الرفاق الذين ساعدوني في إنجازه: ألفريدو لوبيث أوستين، مارك فريد، لينو بيسونارت، كارلوس دياث، بيدرو دانييل وينبرغ وأصدقاء آخرون. وقبل الجميع ودوماً، إلى هيلينا بيبيّاغرا.

طواحين الزمن

آثار

الريح تمحو آثار النوارس.

الأمطار تمحو آثار خطى البشر.

الشمس تمحو آثار الزمن.

الحكواتية يبحثون في الآثار عن الذاكرة المفقودة، عن الحب والألم، وهي آثار لا تُرى، لكنها لا تُمحى.

مديح السفر

صفحات «ألف ليلة وليلة» تنصح:

ـ سافر يا صديقي! اهجر كل شيء وارحل! فما نفع السهم إن هو لم ينفلت من القوس؟ وهل سترنّ ألحان العود بانسجام لو أنه ظلَّ خشباً؟

الأحرار

في النهار تقودهم الشمس. وفي الليل النجوم.

لا يدفعون ثمن تذكرة، ويسافرون بلا جواز سفر ودون أن يملؤوا استمارات جمارك أو هجرة.

الطيور، الأحرار الوحيدون في هذا العالم الذي يقطنه سجناء، إنها تطير بلا وقود، من القطب إلى القطب، في الاتجاه الذي تختاره، وفي الوقت الذي تشاء، دون أن تطلب إذناً من الحكومات التي تظن أنها سيدة السماء.

الغرقى

العالم يرحل.

يحمل معه غرقى أكثر مما يحمل مبحرين.

في كل رحلة، يموت آلاف البائسين دون أن يكملوا رحلة العبور نحو الفردوس الموعود، هناك حيث، حتى الفقراء، يكونون أغنياء، وحيث يعيش الجميع في هوليود.

أوهام القلة الذين يتمكنون من الوصول لا تدوم طويلاً.

الريح

تَنْثُرُ البذور، تَسُوق الغيوم، تتحدى المبحرين.

تنظّف الهواء أحياناً، وفي أحيان أخرى تلوثه.

تُقَرّب البعيد أحياناً، وفي أحيان أخرى تُبعد القريب.

إنها غير مرئية وغير ملموسة.

تداعبك أو تصفعك.

يقولون إنها تقول:

ـ أنا أهبُّ حيث أشاء.

صوتها يهمس أو يزمجر، لكنَّ ما تقوله غير مفهوم.

أتراها تُعلن ما هو آتٍ؟

في الصين، من يتنبؤون بالزمن، يُسمونهم: مرايا الريح.

رحلة الرز

في أراضٍ أسيوية، يُزرع الرز بكثير من الحرص. وحين يأتي موسم الحصاد، تُقطع السُّوق برفق وتجمع في باقات، كيلا تحمل الرياح الخبيثة معها روح الرز.

صينيو إقليم سيشوان يتذكرون أشد الفيضانات التي حدثت

والتي ستحدث هولاً: وقع ذلك الفيضان في قديم الزمان، فأغرق الرز وأغرق روح الرز وكل شيء.

كلب وحيد هو الذي نجا.

حين بدأ تراجع الماء في نهاية المطاف، وراح غضب المياة يهدأ ببطء شديد، تمكن الكلب من الوصول إلى الضفة سابحاً بمشقة.

حمل الكلب معه حبة أرز ملتصقة بذيله.

في تلك الحبة، كانت الروح.

النَّفس الضائع

قبل الماقبل، حين لم يكن الزمان زماناً بعد، والعالم لم يكن عالماً بعد، كنا جميعنا آلهة.

براهما، الإله الهندوسي، لم يستطع تحمّل المنافسة: فسرق منا النَفَس الإلهي وخبأه في مكان سرّيّ.

منذ ذلك الحين، نعيش باحثين عن النَفَس الضائع. نبحث عنه في أعماق البحر وفي أعلى قمم الجبال.

بينما براهما يبتسم من مكانه البعيد.

النجوم

على ضفاف نهر بلات، يروي هنود باواني عن الأصل.

من مستحيل المستحيلات أن تلتقي دروب نجمة الغروب بنجمة الفجر.

ولكن النجمتين أرادتا التعارف.

القمر، وهو لطيف، رافقهما في طريق اللقاء، ولكنه في ذروة الرحلة ألقى بهما إلى الهاوية، وظل طوال عدة ليالٍ يضحك مقهقهاً لتلك الظرافة.

لم تيأس النجمتان. فقد منحتهما الرغبةُ قوةً للتسلق من أعماق الهاوية حتى السماء العالية.

وهناك في الأعالي تعانقتا بقوة شديدة لم تعد تعرف معها كل منهما أيهما هي.

من ذلك العناق انبثقنا نحن، مَشّاءو العالم.

لقاءات

تيزكاتليبوكا، إله أسود، إله الليل المكسيكي، أرسل ابنه للغناء، إلى جانب التماسيح، موسيقيي السماء.

لم تشأ الشمس لذلك اللقاء أن يتم، غير أن الجمال المحظور لم ينصع لها وجَمَعَ أصوات السماء وأصوات الأرض.

وهكذا اتحد الصمت والصوت، الإنشاد والموسيقى، النهار والليل، الظلام والألوان، وتعلمتْ جميعها أن تعيش متحدة.

العالم الجديد

ربما يكون أوليسيس، قد حُمل بالريح، وكان أول إغريقي رأى المحيط.

إنني أتخيل ذهوله حين اجتازت السفينة مضيق جبل طارق وانفتح أمام عينيه ذلك البحر الفسيح، تحرسه مسوخ بأشداق مفتوحة على الدوام.

لم يستطع الملاح أن يتصور أنه في ما وراء تلك المياه شديدة الملوحة وتلك الرياح القوية، يوجد سرٌّ أعظم بكثير، وأنه لايزال بلا اسم.

التنوع الشيطاني

في أواسط القرن السابع عشر، أنهى الراهب بيرنابيه كوبو في البيرو كتابة «تاريخ العالم الجديد».

في ذلك المؤَلَّف الضخم، شرح كوبو سبب وجود عدد كبير من الالهة المختلفين في أميركا السكان الأصليين، ووجود روايات كثيرة متنوعة عن أصول أناسها.

وقد كان السبب بسيطاً: لأن الهنود كانوا جهلة.

ولكن قبل قرن من ذلك، كان الكاتب بالعدل خوان دي بيتانثوس، المعاون الأساسي للفاتح فرانثيسكو بيثارو، قد كشف عن سبب آخر، أكثر قوة بكثير: إبليس هو من كان يملي ما يؤمن به الهنود وما يقولونه، ولهذا لم يكن لديهم دين وحيد، وكانوا يخلطون بين الخير والشر، وكانت لهم الكثير من الآراء المختلفة والأفكار المتنوعة. وأصدر حكمه:

- الشيطان يرسل إليهم آلاف الأوهام والخدع.

عادات همجية

أصابت الدهشةُ الغزاةَ البريطانيين بالحَوَل.

فهم آتون من أمة متحضرة حيث تعتبر النساء ملكية خاصة لأزواجهن ويدنَّ لهم بالطاعة، مثلما يأمر الكتاب المقدس، لكنهم وجدوا في أميركا عالماً معكوساً.

فهنديات قبيلة الإيروكيساس وغيرهم من السكان الأصليين يثيرون الريبة بانحلال أخلاقي. إذ ليس للأزواج حتى الحق

بمعاقبة النساء التابعات لهم. وهن يمتلكن آراءهن الخاصة ولهن ممتلكاتهن الخاصة، ولهن الحق بالطلاق والحق بالتصويت في انتخابات القرية.

لم يعد الغزاة البيض قادرين على النوم بسلام: فقد تنتقل عدوى عادات المتوحشات الوثنيات إلى نسائهم.

بُكم

كانت ألوهيات السكان الأصليين هي أولى ضحايا غزو أميركا.

أطلق المنتصرون تسمية استئصال الوثنية على الحرب ضد الآلهة المحكوم عليهم بالصمت.

عميان

كيف كانت ترانا أوروبا في القرن السادس عشر؟

من خلال عيني تيودور دي بري.

هذا الفنان الذي من مدينة لياج، لم يذهب إلى أميركا قطّ، وكان أول من رسم سكان العالم الجديد.

كانت أعمال حفره هي الترجمة الغرافية لمدونات الغزاة التأريخية.

وكما تُظهر تلك الصور، فإن لحوم الغزاة الأوربيين، المذهبة على جمر الشواء، هي الطبق المفضل للمتوحشين الأمريكيين.

فهؤلاء يلتهمون أذرع وسيقاناً وأضلعاً وبطوناً، ويمصون أصابعهم وهم يجلسون على ركبهم أمام مواقد الشواء المتأججة.

ولكن، عذراً للازعاج: هل كانوا هنوداً أولئك الجوعى المتلهفين إلى اللحم البشري؟

في أعمال حفر دي بري يظهر الهنود جميعهم صلعاناً.

لم يكن هناك في أميركا أي هندي أصلع.

مسخ بوينس ايريس

هكذا رآه، أو تخيله، وهكذا أسماه الأسقف الفرنسي لويس فوليه.

هذا المسخ كان أحد المرعبات التي توضح رسومها كتاب ذكرياته عن رحلته في الأراضي الأمريكية الجنوبية، «مملكة الشيطان»، ما بين عامي 1707 و1712 .

صُمٌّ

عندما وطأت أقدام الغزاة الإسبان أول مرة رمالَ شبه جزيرة يوكاتان، خرج بعض السكان المحليين للقائهم.

وحسب ما روى الراهب توربيو دي بينابيتوروا، سألهم الإسبان باللغة القشتالية:

ـ أين نحن؟ ما اسم هذا المكان؟

فقال الأهالي، بلغة المايا اليوكاتيكا:

ـ تيكتيتان، تيكتيتان.

ففهم الاسبان ذلك

ـ يوكاتان، يوكاتان.

ومنذ ذلك الحين صار شبه الجزيرة يحمل هذا الاسم.

لكن معنى ما قاله الوطنيون بلغتهم:

ـ لا نفهمك، لا نفهمك.

الصفر المتمكن

قبل ما يقرب من ألفي عام، نُحت رمز الصفر على المنحوتات الحجرية في أوكساكتون ومراكز عبادة أخرى لدى شعب المايا.

لقد وصلوا أبعد من البابليين والصينيين في هذا المفتاح الذي فتح الطريق لعصر جديد في العلوم الإنسانية.

بفضل العدد صفر، كان شعب المايا، أبناء الزمن، علماء فلكيين ورياضيين، أبدعوا التقويم الشمسي الأكثر دقة وكانوا المتنبئين الأكثر صواباً بالكسوف وأمور أخرى من عجائب الطبيعة.

خطر

الشوكولاتة، وهو مشروب قديم لدى هنود المكسيك، كان يثير الريبة، وحتى الذعر، بين الغرباء الآتين من أوروبا.

الطبيب خوان دي كارديناس أثبت أن الشوكولاتة تسبب ريحاً وكآبات، وأن الرغوة تحول دون الهضم وتؤدي إلى أحزان رهيبة في القلب.

ويُشتبه كذلك بأنها تقود إلى الخطيئة، وقد فرض الأسقف بيرناردو دي سالازار حُرماً على السيدات اللاتي شربن شوكولاتة في أثناء القداس.

ولكن النساء لم يتخلين عن تلك الرذيلة.

الإنجيل حسب هنود كوتشابامبا

حين قبّل الطفل ثدي الماما، انبثق ينبوع حليب وعسل، ولكن الثدي جف حين قرّب البابا فمه.

وحين تعرَّض البابا، وكان أصلع، للسع البعوض، داعب الطفل الرأس، فخرجت من الرأس قبعة بديعة، جميلة، من قش أبيض مجدول.

وحين لم يعد هنالك عمل في ورشة النجارة، ولم يبق طعام يؤكل، حوّل الطفل قذارات بدنه إلى فطائر جبن ولحم دجاج ببهارات لاذعة.

وعندما كانت الأسرة تجتاز الصحراء، بكثير من العطش ودون أي ماء، ركل الطفل حصاةً صغيرة فتدفق من الأرض جدول ماء زلال.

وحين وصلوا إلى الأراضي الخصبة، تُرك يأكل من الأرض، وفي الأرض غاص واختفى.

وفي اليوم الثالث رجع... من أعماق الأرض رجع، وكان يعرف كل شيء، يعرف كل الأشياء التي حدثت خلال غيابه.

هذا ما كان في أقدم الأزمنة، حسب ما روته لي النساء والرجال بكلمات حقيقية، في وادي كوتشابامبا.

التفسير

كتب الراهب دومينيكو أنطونيو دي لا هويرتا، عام 1547، بشأن غرائب أمريكا وعجائبها:

يقال إنه، في يوم خلقها، كانت يد الرب ترتجف قليلاً.

الطبيعة تُعَلّم

في منطقة الأمازون، تقدم الطبيعة دروساً في التنوع.

الوطنيون يتعرفون على عشرة أصناف مختلفة من التربة، وعلى ثمانين نوعاً من النباتات، وعلى ثلاثة وأربعين جنساً من النمل، وثلاثمئة وعشرة أنواع من الطيور في كيلومتر واحد فقط.

كنا غابات مشاعة

في كل يوم، يخسر العالم غابة طبيعية أصلية، تُغتال وقد تجاوز عمرها عدة قرون وهي لا تزال تنمو.

الصحارى القاحلة والزراعات الصناعية واسعة النطاق تتقدم دافنة العالم الأخضر؛ لكن بعض الشعوب عرفت كيف تخبئ اللغة النباتية التي تتيح لها أن تتفاهم مع متانة السنديان ومع كآبة الصفصاف.

الثيبا

في كوبا، وفي أمكنة أخرى من الأمريكيتين، الثيبا هي الشجرة المقدسة، شجرة السر والغموض. لا تجرؤ الصاعقة على المس بها. ولا الإعصار كذلك.

ولأن الآلهة يسكنونها، فإنها تولد في منتصف العالم، ومن هناك يشمخ جذعها الهائل الذي يسند السماء.

ومن أجل علاج عجرفة السماء، تسألها شجرة الثيبا كل يوم:

على أية أقدام كنت ستستندين لو لم أكن موجودة؟

الأرويرا

تحذير للرحالة: في حقول أمريكا الجنوبية، كونوا على حذر شديد من شجرة تسمى أرويرا، وبلغة السكان الأصليين تسمى «آهوي»، وهذا يعني «شجرة خبيثة».

الأمر يتعلق بسيد شديد النزق، لا ينسى الإهانات ولا يغفرها.

لا يمكن، ولا يجب، قطع أي غصن منها، ولا النوم تحت قبتها الفسيحة دون طلب الإذن منها. ومن المحظور، بصورة خاصة جداً، المرور بجانبها دون تحيتها.

فإذا كان الوقت ليلاً، يقال لها: طاب نهارك.

وإذا كان الوقت نهاراً، يقال لها: طابت ليليتك.

من لا يلتزمون بهذه الواجبات الإجبارية يحكم عليهم بمعاناة التورمات وأنواع من الحمى الشرسة طويلة الأجل، والتي قد تُميت أحياناً.

ليس هناك من هو قادر على منافسة الجَدّ

خبر جيد للمسنين الذين هم في العالم: يخطئ أولئك الذين يظنون أن الأشجار الفتية هي التي تعطي كمية أكبر وأفضل من الخشب.

فها هي ذي أشجار السيكويا، أضخم أشجار العالم، في كاليفورنيا ومناطق أخرى، تقدم شهادتها. فتلك الأشجار الجدات المهيبات، يمكن أن يصل عمر كل شجرة منها إلى ثلاثة آلاف عام، وهي مازالت تُنتج ألفي مليون ورقة، كما أنها الأفضل في تحمل ستة شهور من الثلج وعواصف الصواعق، ولا وجود لوباء قادر على النيل منها.

جلد الكتاب

هو من منحنا ويمنحنا الكثير من المتعة، لكنه لم يتلق سوى القليل أو لا شيء منها.

إنه الخَصيّ تساي لون، العضو في البلاط الملكي الصيني، مُخترع الورق.

حدث ذلك في العام 105، بعد عمل واختبارات طويلة على لحاء شجر التوت ونباتات أخرى.

بفضل تساي لون نستطيع الآن القراءة والكتابة ونحن نتلمس ورق الكتاب، بينما نشعر أن الكلمات التي يقولها لنا هي كلماتنا.

رموز

في العام 1961، بينما كان بعض الخبراء الدوليين ينصحون بحظر زراعة واستهلاك أوراق الكوكا، عُثر في شمال شرقي البيرو على بقايا أوراق كوكا كانت قد مُضغت قبل آلاف السنين.

مضغ الكوكا كان ومازال وسيظل عادة سليمة في مرتفعات جبال الأنديز الشاهقة. الكوكا تقي من الغثيان والدوار، وهي أفضل علاج لعدة أمراض وللإنهاك.

أضف إلى ذلك، وليس هذا قليل، أن ورقة الكوكا هي رمز

هوية، لا يمكن ـ إلا بسوء نية ـ الخلط بينها وبين ذلك المنتج الكيميائي المسمى كوكائين.

ومنتج كيميائي آخر خطير، يدعى هيروين، يمكن الحصول عليه أساساً من زهرة الخشخاش. ولكن المعروف حتى الآن، أن زهرة الخشخاش في إنكلترا مازالت رمزاً للسلام، والذاكرة والوطنية.

يد عاملة

في تيخوانا، عام 2000 وبضع سنوات، استمع الاسقف دافيد أونخيرفيلدر إلى اعتراف واحد من القتلة المأجورين لأسياد تجارة الكوكائين في المكسيك.

اسم ذلك القاتل المحترف خورخي، وكان في العشرين من عمره، ويتلقى ألفي دولار مقابل كل جثة.

كان يشرح الأمر على النحو التالي:

ـ أنا أُفضّل أن أعيش خمس سنوات كملك على أن أعيش خمسين عاماً كعجل.

بعد خمس سنوات، أُشير إليه أيضاً ليموت.

هكذا تُدار تجارة الكوكائين العظيمة في التقسيم الدولي للعمل: البعض يضعون أنوفهم وآخرون يضعون الموت.

حلفاء أوراكا

في جبال بيراغواس البنمية، قاد أوراكا مقاومة السكان الأصليين.

وقد ساعدته كثيراً الأمطار والرياح والرعود.

فحين كان الغزاة الإسبان يتقدمون، كانت الأمطار تُتلف البارود والبواريد. وبينما الرعود تدوي وتصير السماء ليلاً في عز النهار، كان الغزاة يفقدون القدرة على التوجه ويسقطون منهارين بفعل الرياح الغاضبة.

رامي المقلاع

خوان وايبارماتشي مايته، المحارب الشاعر، لم يكن يستخدم سيفاً ولا بندقية.

حين لم تكن بوليفيا قد استقلت، ولم تكن قد سُميت بهذا الاسم بعد، كان خوان يقود لواء رماة المقلاع الذين كانوا، تحت قيادة خوانا آثوردوي، يحركون نوعاً من الحبال في حركة مروحية ويقذفون بها أحجاراً قاتلة نحو الغزاة الإسبان.

كان ذلك اللواء يشن هجماته مغنياً. وبلغة الكيشوا كان رماة المقلاع يغنون جماعياً قصائد خوان الموجهة إلى النساء الحبيبات أو اللاتي سيقعون في حبهن:

وأنا أحبكِ،

وأحلم بكِ،

سأموت.

مات خوان برصاصة في ميدان المعركة. كان عمره واحداً وعشرين عاماً.

أنبياء توباك آمارو

في بدايات القرن التاسع عشر، انتفض إغناسيو تورتيه، في الأدغال البيروية، ضد الدخلاء الذين جاؤوا لأخذ الأرواح والأراضي.

في الوقت ذاته، كان جيش الكيتشوا بقيادة خوان سانتوس آتاوالبا يَحُول، ضربة إثر ضربة، دون تقدم القوات الإسبانية.

في منتصف القرن، بينما كان خوان سانتوس يحتضر، كان الشاب خوسيه غابرييل كوندوركانكي، بعيداً جداً في أدغاله الكتيمة، يختار لنفسه اسم توباك آمارو ويقود تمرد السكان الأصليين الأضخم عديداً في التاريخ الأمريكي كله.

ومن هزيمة إلى هزيمة، من تمرد إلى تمرد، تواصل التاريخ: وكلما قال وداعاً، يقول إلى اللقاء.

بوينس آيرس ولدت مرتين

الولادة الأولى جرت في عام 1536.

المدينة حديثة الولادة تلك، ماتت جوعاً.

في العام 1580، ولدت بوينس آيرس للمرة الثانية، حيث يوجد اليوم ميدان مايو.

ولماذا تسمى بهذا الاسم منطقة ماتانثا (مجزرة)؟ لأن الهنود لم يرحبوا بالدخلاء. منذ البدء كانت هناك حرب. منطقة ماتانثا المأهولة بكثافة عُمدت بهذا الاسم لتخليد ذكرى مجزرة: الموتى، جميعهم، كانوا من هنود الكيراني.

وعلى حدّ قول الغازي خوان غاراي، كانوا طبيعة متناوبة.

الناي الأول

ضاع أحد الصيادين، ذات مرة، في إحدى متاهات أدغال الأمازون.

وبعد أن تجول هائماً على وجهه طويلاً، تهاوى عند أصل شجرة أرز واستغرق في النوم هناك.

أيقظته الشمس وموسيقى لم يسمع مثلها من قبل قطّ.

عنئذ اكتشف الصياد التائه أن طائر نقار خشب، طويل العنق وقوي المنقار، كان ينقر أحد الأغصان.

كانت الموسيقى تولد من الريح التي تدخل من الثقوب التي يحفرها الطائر.

تعلم الصياد. ومحاكياً الريح والطائر، أبدع أول ناي أمريكي.

الطبل

من سواحل أفريقيا سافر نحو أيادي وذاكرة عبيد مزارع أمريكا.

هناك مُنع. فدويُّ الطبل يفك قيد المقيَّدين، ويمنح صوتاً للمحكومين بالصمت. ويعرف مالكو البشر والأرض جيداً أن هذه الموسيقى الخطيرة التي تستدعي الآلهة، تعلن التمرد.

لهذا كان الطبل المقدس ينام مختبئاً.

مسابقة مسنين

منذ بضع ألفيات من السنين، بزيادة سنة أو نقصان سنة، كان الجغوار والكلب والقيوط يتنافسون. من هو المُسن الأكبر سناً بينهم؟ فأكثرهم هَرماً سيتلقى، كجائزة، أول طعام يجدونه.

من أعلى الرابية، كانت عربة متهالكة تتقدم متأرجحة حين سقط منها كيسٌ مملوء بكعك الأرز.

من الذي يستحق هذا الكنز؟

من منهم هو العجوز الأكثر شيخوخة؟

الجغوار قال إنه رأى طلوع أول فجر في الدنيا. وقال الكلب إنه الناجي الوحيد من الطوفان الكوني.

القيوط لم يقل شيئاً، لأن فمه كان ممتلئاً.

رواه لي أحد الحكائين

كان يا ما كان، في مكان من الأدغال الأفريقية، أسدٌ ملكٌ شره جداً ولا يتوقف عن إصدار الأوامر.

حظر ذلك الملك على رعيته أكل العنب:

ـ أنا وحدي أستطيع أكل العنب ـ أصدر حكمه، ووقّع مرسوماً ملكياً يقّرر فيه أن احتكاره العنب هو استجابة لإرادة إلهية.

عندئذ توغل الأرنب في الغابة الكثيفة، وأثار صخباً رهيباً بتكسير الأغصان والتأرجح على النباتات المتسلقة والإعلان بأعلى صوت:

ـ حتى الفيلة نفسها سوف تطير! لقد جن جنون الريح! سوف يأتي الإعصار!

اقترح الأرنب حماية العاهل بتقييده إلى أشد الأشجار متانة.

وقد نجا الأسد الملك، المقيد جيداً، من الإعصار الذي لم

يأت قطّ، بينما الأرنب الذي توغل في الغابة، لم يترك حبة عنب واحدة إلا وأكلها.

صمويل رويث ولد مرتين

في العام 1959 وصل أول أسقف إلى تشياباس.

كان صمويل رويث شاباً مرعوباً من الخطر الشيوعي الذي يهدد الحرية.

قابله فرناندو بنِيتث. وحين علق بأنه ليس هنالك ما يستحق إطلاق تسمية حرية على إذلال الآخرين، طرده الأسقف خارجاً.

كرس دون صمويل أوقاته الأولى كأسقف للدعوة إلى الإذعان المسيحي، يوجهها إلى الهنود المحكوم عليهم بالطاعة العبودية. ولكن السنين مضت، وتكلم الواقع وعَلَّمَ، وأحسن دون صمويل الاستماع.

بعد انقضاء نصف قرن في الأسقفية، تحول إلى الذراع الديني للثورة الزباتية.

السكان الأصليون كانوا يسمونه أسقف الفقراء، ورويث الراهب فراي بارتولومي دي لاس كاساس.

حين نقلته الكنيسة، قال دون صمويل وداعاً لتشياباس، وحمل معه عناق أبناء المايا:

- شكراً - قالوا له -. لم نعد نمشي مطأطئي الرؤوس.

خوسيه فالثيوني مات مرتين

في العام 1907، قام مشاة البحرية الأرجنتينية، المنتظمين في صفين، بهجوم برصاص الماوزر على بيتَ الشعب في ميناء إنخينيرو وايت، حيث كان يجتمع العمال المضربون.

من أجل تفريق الجمعية العامة، أصدر القومندان إنريكي أستورغا الأمر بإطلاق الرصاص للقتل.

خوسيه فالثيوني، أحد الجيران المقيمين في الحي، شاء له سوء الحظ أن يكون ماراً بالقرب من هناك، فمزقت رصاصة إحدى رئتيه.

حشد كبير صامت شيعه إلى مقبرة باهيا بلانكا.

يقال إن القومندان اخترق الحشد، بخطوات مهيبة، وأطلق ثلاث رصاصات أخرى على جسد المتوفى.

لإزالة الشكوك.

رحلة الأرض

الأرض السوداء في مناطق آمازونيا، وتسمى أيضاً بيوتشار، هي نتيجة العمل الطويل والتاريخ المُزدرى لزراعة السكان الأصليين في الأدغال.

تلك الأرض التي تخصب التربة دون أن تفسد قطّ، تتغذي بالألف قطعة وقطعة من فتات الخزف الذي يكسره السكان الأصليون ويزرعونه كي يعيدوا إلى الأرض الفَخَّار الذي منها أتى.

بفضل فعل الحمد الديني هذا، تتجدد الأرض بلا توقف، من زمن إلى زمن، ومن يد إلى يد.

أرض غاضبة

في شهر أيار/مايو من عام 2013، وللمرة الأولى في تاريخ غواتيمالا، حُكم على أحد مبيدي الهنود بجريمة الإبادة العرقية. محكمة ذات اختصاص عام حكمت عليه بالسجن ثمانين عاماً.

كان الجنرال ريوس مونتي، الجنرال ما قبل الأخير في سلسلة من الدكتاتوريين العسكريين المتخصصين في مجازر ضد السكان المايا الأصليين.

بعد قليل من صدور الحكم، حدث زلزال: فالأرض، أم جميع المقتولين، اهتزت وواصلت الاهتزاز دون توقف.

كانت تهتز غضباً. لأنها تعرف أنه سيحدث ما حدث: السلطات القضائية العليا في البلاد طوت إدانة الجلاد. الأرض انتفضت غاضبة ضد الإفلات الدائم من العقاب.

تكريمات

على هضبة سانتا لوثيا، وسط مدينة سنتياغو دي تشيلي، ينتصب تمثالٌ للزعيم الهندي كاوبوليكان.

يبدو كاوبوليكان في التمثال أشبه بهنود أفلام هوليود، وللأمر تفسير: جرى نحت التمثال عام 1869، لمسابقة في الولايات المتحدة تخليداً لذكرى جيمس فينيمور كوبر، مؤلف رواية «آخر رجال الموهيكان».

خسرت المنحوتة تلك المسابقة، ولم يجد الموهيكاني مفراً من الانتقال من تلك البلاد والادعاء كذباً بأنه تشيلي.

أندريسيتو

خوسيه آرتيغاس، صاحب أول إصلاح زراعي في الأمريكيتين، رفض تقبل أن يكون الاستقلال كميناً ضد أشد أبناء هذه البلاد فقراً. واستثار حفيظة المؤسسة الكولونيالية حين عيّن الهندي أندريسيتو غواكوراري قائداً.

قبل أن يُهزم على يد إمبراطوريتين نخاستين وثلاثة موانئ خائنة، تلقى أرتيغاس خبر موت أندريسيتو الذي سقط وهو يقاتل.

لم يؤلمه شيء أكثر من ذلك قطّ. فأندريسيتو، ابنه المختار، كان الأكثر شجاعة والأكثر صمتاً بين جنوده. هندي صامت، يتكلم بأفعاله.

حرب تشاروا

في العام 1832، دُعيت القلة المتبقية من هنود تشاروا، بعد هزيمة أرتيغاس، لتوقيع السلام، ووعدهم رئيس الأروغواي فروكتوسو ريفيرا بأنهم سيُمنحون أرضاً.

بعد أن أكل هنود التشاروا وشربوا جيداً وناموا، بادر الجنود إلى التصرف. جرى قتل الهنود بالسكاكين، من أجل عدمِ هدر الرصاص؛ ومن أجل عدم إضاعة الوقت في الدفن، أُلقيت الجثث في نهر سالسيبويدس.

لقد كانت مكيدة. التاريخ الرسمي أطلق عليها تسمية «معركة». وكلما كسبنا نحن أبناء الأورغواي مباراة كرة قدم نحتفل بالانتصار في «معركة تشاروا».

رحلة البن

خلال رحلة اجتياز البحر، كان الربان جون نيوتون يرتل أناشيد دينية بينما هو يقود سفناً تغص بعبيد مقيدين بالسلاسل.

- كم هو عذب وقع اسم يسوع...

كانت شجرة البن قد نبتت في أثيوبيا قبل ملايين السنين، ولدت من دموع الإله واكا السوداء.

ربما كان الإله يبكي النكبات التي سيأتي بها البن، مثلما حدث مع السكر من قبل؛ فملايين العبيد سيُنتزعون من أفريقيا وستفنى حيواتهم، باسم إله آخر، في المزارع الأمريكية.

مقاهٍ لها تاريخ

في مقهى القاهرة، وهو ليس في مصر إنما في مدينة رسايو الأرجنتينية، هنالك منضدة خاصة لروبيرتو فونتاناروسا، رسام وكاتب. لقد مات منذ سنوات، ولكنه لا يتغيب أبداً. يأتي دوماً برفقة كلبه «ميندييتا» وصديقه إنودورو بيريرا.

في مقهى تورتوني، ببوينس أيرس، تأسس أول تجمع للفنانين والكتّاب الأرجنتينيين.

الأكاديمية البرازيلية للغة، برئاسة الروائي ماتشادو دي آسيس، كانت تجتمع في مقهى كولومبو بريو دي جانييرو.

وفي مقهى بارافينتي، بمدينة سان باولو، كانت أولغا بيناريو ولويس كارلوس بريستس يتخيلان الثورة البرازيلية.

وفي أزمنة المنفى، كان تروتسكي ولينين يناقشان مسألة الثورة الروسية في المقهى المركزي بفيينا.

بعض أعمال الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا البارعة كُتبت في مقهى البرازيل بمدينة لشبونة.

بينما كان القرن العشرين يولد، قدّم بابلو بيكاسو أول معرض لأعماله في مقهى إلس كواتريا تا ببرشلونة.

في العام 1898، كتب إيميل زولا مرافعته المشهورة «إني أتهم!» في مقهى لاباكس بباريس.

في العام 1914، الاشتراكي جان جاوري - الذي كان قد أعلن الحرب على الحروب - جرى اغتياله في مقهى دو كرواسان بباليس.

مقهى ريش في القاهرة، كان في العام 1919 مركز التمرد المصري ضد الاحتلال البريطاني.

في العام 1921، افتُتح في شيكاغو مقهى سونسيت حيث كان لويس ارميسترونغ وبيبي غودمان يفردان أجنحة موسيقاهما.

بهاء الظهيرة

كانت هنالك أسماك لم تُر قطّ، ونباتات ليست من أي حديقة، وكتب مكتبات مستحيلة.

في معرض شارع تريستان نارنخا بمونتيفيديو، كانت توجد جبال فاكهة وشوارع أزهار، وكانت توجد روائح من كل الألوان. هنالك طيور موسيقية وأناس محبين للرقص، وكان هناك وعاظ للسماء وللأرض، يقفون فوق مقعد خشبي صغير ويصرخون

داعين إلى رسالتهم النهائية. وعاظ السماء يعلنون أن ساعة الانبعاث قد أزفت؛ ووعاظ الأرض يعلنون اقتراب ساعة الثورة.

كان هناك من يتجول بين أكشاك البيع عارضاً دجاجة، يأتي بها ماشية، مربوطة من زورها، مثل كلب؛ وهناك من يبيع بينغويناً وصل عن طريق الخطأ إلى شواطئنا آتياً من بحار الجنوب.

كانت هناك صفوف طويلة من الأحذية المستعملة، وهي مستهلكة جداً، مقدمتها مرفوعة وبفم مفتوح. الأحذية تباع بالزوج، وتباع بالفرد أيضاً، أحذية بفردة واحدة لأناس بقدم واحدة. وهنالك عدسات مستعملة، ومفاتيح مستعملة، وأسنان إصطناعية مستعملة. الأسنان الاصطناعية تقبع في دلو كبير. يغطس الزبون ذراعه، يختار أسنانه الاصطناعية ويجربها: إن كانت الأسنان غير مناسبة له، يعيدها إلى الدلو.

كانت هناك ملابس للبس وملابس للخلع. وهناك أوسمة رياضيين وجنرالات. وهنالك ساعات تشير إلى الساعة التي يريدها المرء. وهنالك أصدقاء وعشاق، يجدهم أحدنا دون أن يدري أنه كان يبحث عنهم.

احتفال للذاكرة، وحتى اللقاء في يوم الأحد التالي عند الظهر.

أيدي الذاكرة

في سان بطرسبورغ، حين كانت لا تزال تسمى لنينغراد، عرفتُ قصة انبعاث المدينة.

كانت المدينة قد اغتيلت على يد قوات هتلر ما بين 1941 و1944. بعد تسعمئة يوم من القصف المتواصل والحصار المحكم، تحولت إلى أطلال شاسعة. وكانت أشباح تسكن المدينة التي تعتبر ملكة مدن البلطيق، وعاصمة روسيا القياصرة، ومهد الثورة الشيوعية.

بعد عشرين عاماً على تلك المأساة، استطعتُ أن أتأكد بنفسي من أن المدينة قد عادت لتكون ما كانت عليه. لقد أسسها سكانها من جديد، قطعة فقطعة، ويوماً فيوماً. مخططات إعادة البناء تُستمد من الصور، من الرسوم، من تقارير الصحف ومن شهدات الجيران في كل حي.

المدينة ولدت من جديد، أنجبتها ذاكرة ناسها.

الذاكرة ليست نوعاً على طريق الانقراض

يردُّ الفلاحون المكسيكيون المنظمون في شبكة الدفاع عن الذُّرة على أسئلة:

ـ الذاكرة هي بذرتنا الأساسية. وبسبب إهمال الذرة، لم نعد ندري من أين جئنا.

وتقول امرأة من جنوبي فيراكروث، زميلة في الشبكة نفسها:

ـ الكثير من مبيدات الأعشاب الضارة، الكثير من مضادات الآفات والأوبئة، الكثير من المُخصبات، الأرض تمرض. لقد تحولت الأرض إلى مدمنة مخدرات من كثرة الكيماويات.

وتقول أخرى:

ـ صار التنوع يموت. لم يعد حقل الذرة مثلما كان في السابق، حين كنا نزرع الذرة وإلى جانبها الفاصولياء والفلفل والطماطم والقرع...

وينهي مزارع عجوز، يحن إلى معارف الحياة الريفية:

ـ لم نعد قادرين على قراءة إشارات المطر، والنجوم، ورهافة الهواء...

بُذور ذات هوية

في أواسط العام 2011، اجتمعت أكثر من خمسين منظمة في البيرو دفاعاً عن الثلاثة آلاف ومئتين وخمسين صنفاً من البطاطس. هذا التنوع، ميرات ثمانية آلاف عام من الثقافة الفلاحية، مُهدّد اليوم تحديداً بالموت بسبب غزو النباتات

المعدلة جِينِيّاً، وسلطة الاحتكارات، وتوحيد الزراعات.

عالم غريب هذا العالم، يدعو للاختيار بين الشيء والشيء نفسه، سواء على المائدة أو في التلفاز.

الغضب الإلهي

تونوبا، البركان، إله البرق الذي يستدعي المطر، يهيمن على أعالي مرتفعات جبال الأنديز.

عند قدميه، يمتد السهب الأبيض اللامتناهي الذي يبدو ثلجاً، لكنه مكون من ملح، وفي ما حوله تُزهر حقول الكينوا.

يقولون إن البركان قد قال:

ـ لقد جئت بالكينوا لمواساة اليائسين.

وقد أهدى إلى السكان الأصليين بذور الكينوا الصغيرة التي نجا بفضلها أبناء شعبيِّ الأيمارا والكيتشوا من الجوع وبفضلها يتحملون حدّة الشمس والصقيع.

فقدان الذاكرة

مارس نكولاس شاوشيسكو الديكتاورية في رومانيا طوال أكثر من عشرين عاماً.

لم تكن لديه معارضة، لأن الأهالي كانوا مشغولين في السجون أو المقابر، ولكنهم جميعاً كانوا يتمتعون بحق التصفيق بلا حدود للتماثيل الفرعونية التي تنتصب، تكريماً له، بأيد عاملة مجانية.

الحق بالتصفيق له مارسه أيضاً سياسيون مشهورون من أمثال ريتشارد نيكسون ورونالد ريغان اللذين كانا صديقيه الحميمين، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذين هدرا أموالاً ومدائح على تلك الدكتاتورية الشيوعية التي تستجيب لأوامرهما دون أن تنبس ببنت شفة.

ومن أجل الاحتفاء بسلطته المطلقة، عمل شاوسيسكو على أن يُصنع صولجان من العاج، ومنح لنفسه لقب قائد الشعب.

ومثلما جرت العادة، لم يعترض أحد.

ولكن بعد وقت قصير جداً من ذلك، حين انفلت إعصار الغضب الشعبي، كان إعدام شاوشيسكو احتفال تطهر جماعي.

عندئذ، وبصورة سحرية، تحول ذلك الطبيب بين الطبيبين، والمفضل لدى الأقوياء في العالم، ليصبح شرير الفيلم.

يحدث مثل هذا عادة.

مسخ يبحث

كان القديس كولوملا يجذف في بحيرة نيس حين انقض المسخ على الزورق، وهو أفعوان هائل فاتح شدقيه. لم تكن لدى القديس كولوملا أدنى مصلحة في أن يتحول إلى وجبة غداء، فسَحَرَ الأفعوان برسم إشارة الصليب، عندئذ هرب المسخ.

بعد أربعة عشر قرناً من ذلك، جرى تصوير المسخ على يد جيران للبحيرة، كانوا يحملون بالصدفة آلة تصوير معلقة في العنق، ونُشرت صورهم تلك في صحف غلاسكو ولندن.

تبين أن المسخ دمية، وأن آثار قوائمه ما هي إلا قدمي طفل فرس نهر رضيع، يبيعونه للاستخدام كمنفضة سجائر.

كشفُ تلك المعلومات لم يُفقد السائحين حماستهم.

الطلب على المسخ يغذي سوق الخوف.

سيدات وسادة

بطاقات الدخول الأخيرة توشك على النفاد! لا تضيعوا فرصة المشاهدة!

حدائق الحيوان البشرية أُسست عام 1874 على يد رجل الأعمال الألماني كارل هاغنبك، وقد انتشرت بعد ذلك بنجاح في أوربا كلها تقريباً.

وكيلا يكون المجتمع الريفي الأرجنتيني أقل مكانة، فقد أقام استعراضه الخاص بعد خمسة وسبعين عاماً من ذلك. وفي العقار نفسه حيث تعرض أفضل ماشية البلاد، اشترى الجمهور مشاهد للبدائية المعاصرة برؤية بعض السكان الأصليين من شعب الماكا، شبه عراة، ممن انتزعوا وجيء بهم من منطقة الغران تشاكو.

فلنخرج في نزهة

في أواخر القرن التاسع عشر، كان كثيرون من أهالي مونتيفيديو يخصصون أيام الآحاد لنزهة مفضلة: زيارة السجن ومشفى المجانين.

يتأملون السجناء والمجانين. وكان أولئك الزوار يشعرون أنهم أحرار جداً وعاقلون جداً.

أجنبي

في جريدة يُصدرها حي رابال ببرشلونة، كتبت يدٌ مجهولة:

ربك يهودي، موسيقاك زنجية، سيارتك يابانية، بيتزتك إيطالية، غازك جزائري، قهوتك برازيلية، ديمقراطيتك إغريقية، أعدادك عربية، حروفك لاتينية.

وأنا جارك، وتسميني أجنبي؟

إيسوب

ليليان تورام، حفيدُ عبيدٍ في جزيرة غوادالوبي، سأل ابنه الصغر:

ـ كيف هو الرب؟

فرد الطفل دون تردد:

ـ الرب أبيض.

كان تورام لاعب كرة قدم عظيماً، بطل أوروبا وبطل العالم، ولكن ذلك الجواب غيّر حياته.

فمنذ ذلك اليوم قرر الخروج من الملاعب ليكرس أفضل طاقاته للمساعدة في إنقاذ كرامة الزنوج في العالم.

استنكر العنصرية في كرة القدم وفي التربية، لأنها تُفرغ ماضي الأطفال الذين ليسوا من أبناء السادة.

كانت الذاكرة الجماعية اكتشافاً مستداماً يفتح عينيه. طريق كشف المُخبأ كان مكوناً من شكوك كثيرة والقليل من اليقين، لكن ذلك لم يُفقده حماسته. ومستنداً إلى أبحاث قديمة جداً، أثبت أن هناك احتمال بأن إيسوب كان زنجياً، عبداً من النوبة، وتذكر أنه كان هنالك فراعنة زنوج في مصر، وأن هناك مئات أماكن العبادة الشعبية بالكونغو، يُحتفل فيها بالعذراء الزنجية، على الرغم من أن الكنيسة تقول إنها لم تكن زنجية: العذراء صارت سوداء هكذا بسبب دخان البخور وخطايا غير المؤمنين.

خرافة من أزمنة إيسوب

اكتشفت امرأة عجوز وجود إبريق فارغ في حالة مزرية على الأرض.

لم ينج من الإبريق سوى شذى نبيذ باليرمو الجيد.

كانت المرأة تشم بقايا ذلك الفخار مرة بعد أخرى بمتعة متزايدة.

وبعد كثير من الشمّ خصت النبيذ الذي كان الابريق يضمه بهذا الغزل:

ـ إذا كانت هذه آثارك، فكيف تراها كانت خطواتك؟

القول ما يقوله لاروس...

في العام 1885، أقدم جوسيب فيرمين، الزنجي، الهايتيّ، على نشر كتاب في باريس يضم أكثر من ستمئة صفحة، بعنوان حول مساواة الأعراق البشرية.

لم يجد الكتاب انتشاراً، ولم يجد صدى. ما وجده هو الصمت فقط. ففي ذلك الزمان، كانت لا تزال مقدسة كلمة معجم لاروس التي تشرح المسألة على هذا النحو:

في العرق الأسود، الدماغ أقل تطوراً مما هو عليه في العرق الأبيض.

هكذا ولدت لاس فيغاس

آنذاك، في حوالي العام 1950 وأكثر قليلاً، كانت لاس فيفاس أكثر من لا شيء بقليل. أهم عامل جذب فيها هي الفطور الذرية التي يجري عليها العسكريون تجاربهم في مكان قريب هناك، مقدمين بذلك عرضاً مسلياً للجمهور، وهو جمهور أبيض حصرياً، ويمكنه مشاهدة العرض من شرفات مخصصة لذلك. وكانوا يُحضرون أيضاً للجمهور، الأبيض حصراً، الفنانين الزنوج الذين كانوا كبار نجوم الغناء.

كان يُدفع جيداً للويس آرمسترونغ، وإيلا فيتزجيرالد، ونات كينغ كول، ولكن هؤلاء كانوا يستطيعون الدخول والخروج فقط من الأبواب المخصصة للخدم. وعندما تسلل سامي ديفز الابن إلى المسبح ذات يوم، أمر مدير الفندق باستبدال مياه المسبح كلها.

وظلت الحال على هذا المنوال حتى العام 1955، حين افتتحَ مليونيرٌ في لاس فيغاس ما أسماه «أول فندق كازينو دولي في الولايات المتحدة». كان جو لويس، الملاكم الاسطوري، يرحب بالنزلاء الذين كانوا بيضاً وسوداً؛ وهكذا بدأت لاس فيغاس تصير لاس فيغاس.

مالكو القرية التي تحولت إلى أفخم فراديس البلاستيك لا يزالون عنصريين، ولكنهم اكتشفوا أن العنصرية ليس

تجارة رابحة. فدولارات أي زنجي ثري هي خضراء تماماً مثل الدولارات الأخرى.

كرر لي الأمر، من فضلك

في أيامنا هذه، تملي دكتاتورية السوق العالمية أوامر أقرب إلى التناقض:

لا بد من شد الأحزمة ويجب إنزال البنطلونات.

الأوامر التي تنزل من السماء ليست أكثر تماسكاً، والحق يجب أن يقال. ففي التوراة (سفر الخروج 20) يملي الربُّ:

لا تقتل.

وفي الفصل التالي (سفر الخروج 21)، الرب نفسه يأمر بالقتل لخمسة أسباب مختلفة.

تاج من ذهب

حسب ما يُروى في الأولمب الإغريقي فإن زيوس، رب الأرباب، وهيرا زوجته، اشتبكا في نزاع زوجي من تلك النزاعات التي يمكن لها أن تسبب لك شيخوخة مئة عام؛ وكانت المشكلة تمضي من سيئ إلى أسوأ عندما ظهر الابن، هيفيستوس، واتخذ في

هذه المعركة التي لم يُدعَ إليها موقفاً مؤيداً لأبيه.

وهيفيستوس المطرود من أبيه، أُلقي به إلى العالم.

وجد ملجأ في أحد الكهوف، وهناك راح يمارس فنون الحدادة.

عمله البارع الأهم كان مكرساً لماما.

كان ذلك العمل عرشاً، فيه عيب وحيد: فهو يتضمن سلاسل تُقيِّد إلى الأبد من يجلس عليه.

دكتاتور صغير متنور

الرجل الذي أحرق أكبر عدد من الكتب، وقرأ أقل عدد منها، كان يملك أكبر مكتبة في تشيلي.

لقد جمع أغوسطو بينوشيت آلاف وآلاف الكتب، بفضل الأموال العامة التي يحولها إلى أرصدة للاستخدام الخاص.

كان يشتري كتباً من أجل امتلاكها، وليس لقراءتها.

المزيد والمزيد من الكتب: كما لو أنه يضيف دولارات إلى حساباته في مصرف ريغز.

وجد في المكتبة ثمانمئة وسبعة وثمانون كتاباً عن نابليون بونابرت، جميعها مجلدة تجليداً فاخراً. وكانت تماثيل بطله المفضل تتصدر خزائن الكتب.

جميع كتب المكتبة تحمل خاتم ملكية بينوشيت، ولصاقة ملكيته للكتب تمثل: رسم الحرية مزودة بجناحين وتحمل مشعلاً.

المكتبة المسماة «الرئيس أغوسطو بينوشيت»، تُركت ميراثاً للأكاديمية الحربية للجيش التشيلي.

دكتاتور صغير لا يُهزم

كان القتل متعة، وغير مهم أن تكون الضحية غزالاً أو فرخ بط، أو ناشطاً جمهورياً. لكن طيور الحجل هي المتميزة في حفلات صيد فرانثيسكو فرانكو.

في أحد أيام أكتوبر 1959، قتل الجنراليسمو أربعة آلاف وستمئة طائر حجل، وهكذا تجاوز رقمه القياسي السابق.

المصورون خلدوا ذلك اليوم الانتصاري.

عند قدمي المنتصر تقبع غنائمه التي تغطي أراضي الدنيا.

المُخوِّف

هناك في العام 1975 و1976، قبل وبعد الانقلاب العسكري الذي فرض أشد الدكتاتوريات العسكرية الأرجنتينية شراسة،

كانت التهديدات تهطل بغزارة، وكان المشبوهون بالتفكير يختفون في غياهب ضباب الرعب.

أورلاندو روخاس، منفي باراغوئي، رفع سماعة الهاتف، في بوينوس آيرس، ليرد على اتصال.

كرر صوتٌ الكلام نفسه كما في كل يوم:

- أتصلُ بك لأخبرك أنك ستموت.

- وحضرتك لن تموت؟ - سأله أورلاندو.

المُخوِّف قطع الاتصال.

المَطهر

في شهر آب/أغسطس 1936، في أوج الحرب ضد الجمهورية الإسبانية، أجرى الجنراليسمو فرانثيسكو فرانكو مقابلة صحفية مع الصحفي الأمريكي جاي آلان.

قال فرانكو إن انتصاره وشيك، انتصار الصليب والسيف:

- سنحققه مهما كان الثمن - قال.

- سيكون عليك أن تقتل نصف إسبانيا - علق الصحفي.

وردّ فرانكو:

- لقد قلتُ: مهما كان الثمن.

حملات التطهير كانت تتم بمرافقة كهنة اعتراف

وعسكريين. إذ كان لا بد من تنظيف إسبانيا من الفئران والقمل والبولشيفيك.

أبواب مغلقة

في شهر آب/أغسطس 2004، حدث حريق في مركز تجاري بمدينة أسونثيون عاصمة الباراغوي.

وقع ثلاثمئة وستة وتسعون قتيلاً.

كانت الأبواب مغلقة، كيلا يهرب أحد دون دفع الحساب.

غير مرئيين

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2012، وقع حريق أحرق مئة وعشرة عمال أحياء في بنغلاديش. كانوا يعملون في ما يسمى sweeatshops، أي «ورش العرق»، بلا أي ضمانات ودون أية حقوق.

بعد قليل، في شهر نيسان/أبريل من العام التالي، أودى حريق آخر بألف ومئة وسبعة وعشرين عاملاً آخرين في «ورشة عرق» أخرى ببنغلاديش.

جميعهم كانوا غير مرئيين، مثلما هم غير مرئيين عبيد

أمكنة أخرى في العالم المعولم.

أجورهم، دولار واحد في اليوم، وهي أجور غير مرئية أيضاً.

المرئي، بالمقابل، هي الأسعار الباهظة التي تنتجها أيديهم لماركات وول مارت، وجي. سي بيني، وسيرز، وجاب ، وبينيتون، وآتش أند إم...

الإضراب الأول

اندلع الإضراب الأول في مصر، في وادي الملوك، يوم 14 تشرين الثاني/نوفمر من عام 1152 قبل الميلاد.

أبطال الإضراب الأول في تاريخ الحركة العمالية كلها كانوا من نحاتي الأحجار، والنجارين، والبنائين، والرسامين الذين يبنون الأهرامات؛ توقفوا عن العمل وقد قاطعوا أذرعهم إلى أن تلقوا أجورهم المستحقة.

لقد حصل العمال المصريون في الزمن الغابر على الحق في الإضراب. كما كانوا يتمتعون بخدمات طبية مجانية من حوادث العمل.

لم نكن نعرف شيئاً من هذا إلى ما قبل زمن قليل.

ربما خوفاً من أن يشيع المثال.

مصد الرياح

ترأس توماس مونتزير الثورة الفلاحية في ألمانيا عام 1525.

هذا الأسقف المعادي للأمراء وسادة الأرض والحرب، تبعه حشد من الرجال الرافضين أن يكونوا ملكية خاصة لرجال آخرين.

لعن لوتير ذلك المجنون الذي لا شفاء له، ابنه الجاحد:

ـ أنا لا أؤمن بمونتزير حتى لو ابتلع الروح القدس بريشه وبكل شيء.

فردّ عليه مومتزير:

ـ أنا لا أؤمن بلوتير حتى لو ابتلع مئة ألف كتاب مقدس كاملة.

استولت الثورة على أراضٍ، وأحرقت قلاعاً وواجهت الجيش والمقامات الكهنوتية العليا، ولكنها هُزمت بعد سنة.

قتل المنتصرون آلاف الفلاحين الأقنان المتمردين، وقطعوا رأس مونتزير الذي عُرض، ليكون عبرة، في ميدان مدينة مولهاوزن الإمبراطورية.

أصداء

في أواسط القرن التاسع عشر، تكاثرت الكومونات الزراعية في الأرياف الإنكليزية، واستمرت في الوجود متحدية مملكة النبالة كلية القدرة.

مرت القرون، ومازالت ترن أصداء الكلمات التي قالها وكتبها أحد نشطاء الكومونيين، جيرارد وينستانلي:

لقد بدأنا بناء عيشنا وموتنا.

لسنا نبحث عن الفردوس في السماء. فالفردوس يمكن العثور عليه في أي مكان من العالم الطبيعي.

روح الكومونة هي الأب، والأرض هي الأم.

في بداية الأزمنة، خلق الرب العالم. ولم يقل ولو كلمة واحدة ينسب فيها إلى جزء من البشرية حق اقتياد الآخرين.

حين أختُرعت الملكية الخاصة، ولدت الطبقات الاجتماعية، في مجتمعات حيث تعمل الأكثرية كخدم أو عبيد للأقلية التي تحتكر الأراضي والثروات التي تنتجها.

في الكومونة الحرة، تتزوج النساء من الرجال الراغبات هنّ بالزواج منهم.

عجائب الطبيعة ستكون في متناول الجمهور، بدل أن تكون حكراً على الأساتذة. المعرفة ستعم العالم، مثلما تغطي المياه البحار.

هل استتب الأمن؟

عمال الإكوادور الذين أعلنوا الإضراب العام، اقترفوا جريمة احتلال مدينة غواياكيل، دون إطلاق طلقة واحدة، وحكموها خلال بضعة أيام من عام 1922. كانت أيام سلام لم تعرف المنطقة مثلها قطّ. فمن ولدوا لينصاعوا احتلوا المكان الذي خصصه الرب لمن ولدوا ليقودوا؛ وهذا ما لا يمكن السماح به.

أصدر رئيس الإكوادور أمر نشر الهدوء، مهما كلف الأمر.

وأُعلن أنه قد أُعيد فرض النظام.

ولكن في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من كل عام، تعود الصلبان إلى نهر غواياس. إنها صلبان التضامن التي أبحرت في ذلك الحين مرافقة العمال القتلى ممن أُلقي بهم في النهر بأمر رئاسي.

أعشاش متحدة

ربما أن التعاون المتبادل والتواصل المشترك ليست اختراعات بشرية.

ربما تكون التعاونيات السكنية، على سبيل المثال، قد استوحيت من الطيور.

ففي جنوبي القارة الأفريقية وفي أمكنة أخرى، هنالك مئات الأزواج يتحدون، منذ الأزل، من أجل بناء أعشاشهم متقاسمين عمل الجميع للجميع. يبدؤون بإقامة سقف كبير من القش، وتحت ذلك السقف ينسج كل زوجين عشهما الذي يتحد مع الآخرين في كتلة كبيرة من البيوت الصاعدة نحو أعلى أغصان الأشجار.

المدرسة الأخرى

إرنستو لانغي ترعرع في حقول سان خوسيه بالأروغواي.

عصافير الدوري رافقت طفولته. عند الغروب، آلاف عصافير الدوري تجتمع على أغصان الأشجار وتغرد معاً: تقول في غنائها وداعاً للشمس الذاهبة، وحين يهبط الليل تواصل الغناء.

كانت قبيحة عصافير الدوري، لكنها جميلةٌ أصوات ذلك الكورال الذي لم يكن يتخلف عن الاجتماع من أجل الغناء شكراً للشمس التي منحتهم الدفء والضوء.

قصة ارنستو ذكّرتني بما اكتشفتُه منذ سنوات طويلة في حديقة بِخيخون: الطواويس، الطيور ذات الجمال المبهر، تفرد هناك في توحد مروحة رياشها الملونة، وتبكي في توحد، مطلقة صرخات عويل، دون أن تجتمع بأحد، بينما الليل يتقدم والنهار يموت.

المناضلة

نينا دي كامبوس ميلو، حفيدة عبيد، ولدت عام 1904.

كان عليها، منذ الثانية عشرة من عمرها، أن تتولى مسؤولية اخوتها الصغار الخمسة.

بشرتها السوداء لم تكن تساعدها في العثور على عمل بمدينة سان باولو، ولكنها تدبرت أمرها للتنظيف والطهو في بيوت عدة أسر، منذ شروق الشمس حتى مغيبها، وهي تحمل مسؤولية الأطفال على كاهلها.

كانت في العشرين من عمرها حين جرى اختيارها رئيسة لنقابة العاملات المنزليات.

منذ ذلك الحين كرست نفسها لمساعدة النساء اللاتي ولدن، مثلها، محكوم عليهن بالعبودية المؤبدة.

ماتت في الخامسة والثمانين.

عند دفنها لم تُلْقَ خطابات.

جميع رفيقاتها كنَّ هناك. وقد ودَّعنها مغنيات.

الخياطة

كانت تُخيط أفضل المعاطف، سترات هي دروع أنيقة ضد البرد، ولم يكن هنالك في مدينة لاباث من ينافسها بالنوعية وحسن الذوق في كافة الملابس التي تبدعها.

لكن براعة سيمونا مانثانيدا كانت تصل أبعد كثيراً. فهذه الخياطة ذات اليدين الحساستين والصوت العذب كانت تعمل ضد السلطة الاستعمارية. بين أقمشتها المُسَرَّجة، وثنايا تنانيرها المتعددة كانت تخبئ خرائط ورسائل وتعليمات ساعدت كثيراً في تحرير تلك الأراضي التي تسمى اليوم بوليفيا.

واصلت سيمونا الخياطة والتآمر إلى أن وُشِي بها.

قصوا جدائلها، وحلقوا شعرها، ثم أركبوها على حمار وجالوا بها، عارية، في الساحة الرئيسية، وأطلقوا الرصاص على ظهرها بعد أن جَلَدُوها خمسون جلدة.

لم تُسمع لها آنة واحدة. لقد كانت تعلم أنها لا تموت بسبب ارتكابها خطيئة.

الخطيرة

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1976، داهمت الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية بيت كلارا آناهي مارياني واغتالت أبويها.

أما هي، فلم يُعرف أي شيء عنها قطّ، على الرغم من أن اسمها يرد، منذ ذلك الحين، في سجلات إدارة مخابرات شرطة محافظة بوينس آيريس، في القسم المخصص للمجرمين المخربين.

إضبارتها تقول إنها:

متطرفة.

لقد كان عمرها ثلاثة شهور حين صُنِّفت هكذا.

عين السيد

في أزمنة آل كابوني، لم يكن التجسس يتمتع بسمعة عالية، لأنه يخرق حرية وخصوصية مواطني الولايات المتحدة.

بعد سنوات من ذلك، تحول التجسس إلى واجب وطني.

والآن يصفق له الجميع تقريباً، لأنه يعمل ضد مخربين يستعينون بحقوق الإنسان لخدمة الإرهاب الدولي، مثلما هي حال بعض المشبوهين من أصدقاء مؤلف هذا الكتاب.

أبطال معتبرون،

نزلاء غير مرغوب بهم

في بدايات القرن التاسع عشر، لم يكن قادة النضال من أجل استقلال تشيلي يخفون تقديرهم لمقاومة السكان الأصليين التي كانت العظم الصلب العصي على الغزاة الإسبان.

أولى البؤر المناهضة للاستعمار كانت تتمثل بالمحاربين الهنديين المابوتشيين: كاوبوليكان ولاوتارو.

ولكن بعد سنوات من ذلك، صارت الصحف الرئيسية تصفق للحرب ضد الهنود الذين تسميهم: النزلاء غير المرغوب فيهم في الوطن التشيلي.

الآن يسمونهم إرهابيين، لأنهم يقترفون جريمة الدفاع عن الأراضي التي سرقوها منهم.

العلق

خلال قرون عديدة، كان يرد ذكر هذه الحيَّات الصغيرة بين المواد الرئيسية المستوردة إلى البلدان الأوروبية.

كان الأطباء يعتقدون أن العلق الذي يمتص الدم، يُشفي المرضى.

منذ زمن غير بعيد، وباستخدام الحس السليم تم اكتشاف أن هذا العلق لا يساعد المرضى، وإنما يُضعفهم ويُسَرّع موتهم.

مضى الزمن. والآن، العلق الحديث الذي يبيعك صحة جيدة بينما هو يرافقك إلى المقبرة، لم يعد له ذلك المظهر المنفر، بل يعمل في الصناعة المنجمية وعناوين أخرى كثيرة كشركات محترمة.

هليلويا

في ظهيرة أحد أيام العام 1972، أقيم احتفال ديني لا يُنسى في مدينة كيتو.

كان الخبر الأكبر في الصحف والتلفزيون والإذاعات، ولم يجر الحديث عن أي أمر آخر في مجالس النميمة بالمدينة.

بلغت الطقوس لحظة الذروة حين غنت الحشود النشيد الوطني، بوجوه مضمخة بدموع التأثر، بينما البوق يصدح والمُكَرَّمُ يُرفع نحو منصة الأبطال.

وهناك في الأعلى كان يتألق، تحت الأضواء، المذبح الذي أقيم خصيصاً للمناسبة.

وفي منتصف المذبح، كان المحتفى به محاطاً بالزهور: إنه أول برميل نفط استخرجته شركة تيكساكو في الاكوادور.

كانت الجموع المحيطة تقدم له طقوس الورع.

الجنرال غييرمو رودريغيث لارا، وهو دكتاتور طيب القلب، أهدى البترول للشركة، أعلن:

- سوف نزرع نفطاً! إنه ميلاد عصر جديد!

عُرف بعد ذلك أن أشرس مجزرة ضد الطبيعة في تاريخ أدغال الأمازون كله قد بدأت يومذاك.

العذراء المخصخصة

ما لا يدر ربحاً لا يستحق الوجود، لا في الأرض ولا في السماء.

في العام 2002، عذراء غوادالوبي، أم المكسيك ورمزها، بيعت مرتين.

في شهر آذار/مارس التزمت شركة فيوتران متعددة الجنسيات أن تدفع اثني عشر مليون دولار مقابل امتلاك صورة العذراء مدة خمس سنوات. الاتفاق الذي يحمل توقيع رئيس بازيليكا غوادالوبي، مع تأييد الكردينال نوربيرتو ريفيرا، يبارك كافة المواد الدينية التي تُصنِّعها الشركة.

ولكن في تموز/يوليو من السنة نفسها، سجل رجل الأعمال الصيني وو يو لين براءة ماركة العذراء، مقابل سعر أقل بكثير ولفترة أطول بكثير.

لم يعد يعرف لمن صارت تعود ملكيتها.

المرحب به

في العام 1982 تحولت مدينة فراي بينتوس الارغوائية إلى هوليود لأيام قليلة.

حشد لم يُشهد له مثيل يُحَيّي بحماسة سيارة ليموزين سوداء لم يُر مثلها من قبل، جاء فيها الشيخ العربي أبوبكر بخشباب، ترافقه حاشية لم يُرَ مثلها من سيدات بملابس ألف ليلة وليلة.

خلال وجوده في الأروغواي أسرف، منقذ اقتصادنا من الأزمة، بتقديم الوعود: استثمارات ضخمة، وظائف بالجملة، أجور مرتفعة جداً، وفوائد عالية لمن يرغبون في مضاعفة مدخراتهم في برهة.

لم يستطع أحد مقاومة الإغراء، إلى أن تبخر الشيخ في إحدى الليالي مع حاشيته كلها.

لم يترك كذكرى خاتماً واحداً من الخواتم الكثيرة التي تملأ أصابعه، ولكنه بالمقابل، غطى المدينة بأوراق شيكات بلا رصيد.

لقد كانت تلك الزيارة السريعة نبوية: فبعد مرور عشرين عاماً وصل رجال أعمال أجانب متنفذين، يحملون النوايا النبيلة بتكرار القصة.

بوابة الفردوس

في العام 2009، استيقظت قرية مواتيزيه بموزامبيق وقد تحولت إلى أكبر مصدر للفحم في العالم بأسره.

سكانها مدى الحياة أُجبروا على هجر مرابعهم المهودة، بينما راحت شركات آتية من أماكن بعيدة جداً بالالتهام تلك الأرضي محتفلة بالاكتشاف.

مناجم الفحم استَهلكت المياه حتى نفادها وحوّلت قرية مواتيزيه إلى فرع من فروع الجحيم.

الفلاحون مازالوا ينتظرون الأراضي الخصبة التي وعدوهم بها.

تلقوا أراضٍ صخرية.

رحلة إلى الجحيم

منذ بضع سنوات مضت، خلال واحدة من ميتاتي، زرتُ الجحيم.

كنت قد سمعت أنهم يقدمون لك في الهاويات السحيقة النبيذَ الذي تفضله، أطايب المأكولات التي تختارها، عشيقات وعشاق لكل الأذواق، موسيقى راقصة، متعة غير متناهية...

وقد تأكدت مرة أخرى من أن الدعاية تكذب. الجحيم يَعِدُ بالحياة الكبرى، ولكنني لم أجد فيه سوى جمع من الناس يصطفون بالدور.

الرتل الطويل الذي يغيب عن النظر في المضائق المدخنة، مؤلف من نساء ورجال من كافة الأزمنة، ابتداء من صيادي الكهوف حتى رواد الفضاء الكوني.

هنَّ وهم محكوم عليهم بالانتظار. الانتظار منذ الأزل وحتى الأبد.

هذا ما اكتشفته: الجحيم هو الانتظار.

وجهي، وجهك

حسب ما يقوله العارفون، الدلافين تتعرف على نفسها في المرايا.

كل دلفين يحدد الصورة التي تعيدها إليه المرآة.

وكذلك أبناء عمومتنا، الشمبانزي، والأورنغتان، والغوريلا، ينظرون إلى المرآة، ولا يخامر أحدهم أي شك: هذا أنا.

أما نحن بالمقابل، فالأمر يبدو لنا أكثر تعقيداً. يحدث في أيام الغم وتعكر المزاج هذه، وهي أيام بديعة لتلقي أخبار حزينة وأكل حساء مسامير: عند بدء هذه الأيام المعادية، يفكر أحدنا

مَنْ تراه يكون هذا الشخص الذي ينظر إلي، ولمن هو هذا الوجه اللعنة الذي أقوم بحلاقته.

أقنعة

في أفريقيا السوداء، الأقنعة هي الوجوه الحقيقية. الوجوه الأخرى تخبئ، أما الأقنعة فتشي.

حسب نظرتها، مواجهة أو جانبية، عن قرب أو عن بُعد، من أعلى أو من أسفل، تكشف الأقنعة الأفريقية، بسحر فنها، الشخوص المتعددين في كل شخص، الحيوات والميتات التي تتضمنها كل حياة، لأن كل واحد هو أكثر من واحد، والأقنعة لا تعرف أن تكذب.

ضربة الحذاء

رفعه رافائيل بيبير في يده

- هذا الحذاء، هكذا مثلما تراه، له قصته.

وروى لي أن هذا الحذاء كان لمريض لا يستطيع التنفس.

في بعض الأحيان يؤدي جهاز خاص أو بعض أقراص الدواء إلى فتح صدره لوقت قصير، لكن الهواء يذهب ولا يرجع، مهما حاول المختنق استدعاءه.

في إحدى الليالي قذف المريض، وهو يعاني، بحذائه نحو النافذة المغلقة. وأخيراً دخل الهواء إلى بيته وإلى بدنه، فاستطاع أن ينام بعض الوقت، بعد ليال طويلة من العذاب.

حين استيقظ، كانت الأرض مغطاة بفتات الزجاج.

لم تكن النافذة، ليس أي نافذة: ذلك الزجاج هو ما تبقى من المرآة، مرآته التي كسرتها ضربة الحذاء وفتتها ألف قطعة.

لم تكن النافذة، ليس أي نافذة: ذلك الزجاج ما تبقى من المرآة، مرآته التي كسرتها ضربة الحذاء وفتتها ألف قطعة.

الطبيب

شين نونغ، إله المزارعين الصيني، يشعر بشفقة عظيمة على ضحايا المياه الملوثة والمزروعات السامة. هو من علّم الفلاحين كيفية التمييز بين ما هو صالح للشرب وما هو غير صالح، وما هو صالح للأكل وما هو ليس كذلك، وهكذا دوليك، منقذاً بذلك حيواتاً، حتى تحول إلى سيد الطب.

أكان يمكن لشين نونغ أن يحقق عمله الخيّر في أيامنا هذه؟ في زمننا هذا، حيث طيور البط تعاني الربو، والحمائم تصاب بالحساسية، وطيور مالك الحزين تتقيأ ماء الأنهار المسموم؟

سلام الماء

المحكمة الأشد عدالة في العالم ـ وهي الأقدم في أوربا كذلك ـ ليست مؤلفة من حقوقيين.

محكمة المياه تأسست في مدينة بلنسية عام 960، ومنذ ذلك الحين تجتمع المحكمة كل يوم خميس، في منتصف النهار، عند بوابة الكتدرائية التي كانت مسجداً.

هذه العدالة لا تأتي من أعلى، ولا من الخارج: القضاة من المزارعين الذين يزرعون أراضيهم، ويحلّون في ما بينهم النزاعات المائية على السواقي التي تروي بساتين بلنسية.

السواقي، مثلما هي المحكمة، من ميراث إسبانيا الإسلامية.

كان ياما كان، كان هناك نهر

الغانج، النهر المقدس الذي يخترق الهند، ولد من الخطوات السبع للإله فيشنو الذي خلّف أثر قدميه على أحجار المناطق السبع.

كان النهر تجسيداً لجانجا، أجمل الربات، وكان بيتها بين النجوم إلى أن خطر لها المجيء للعيش في هذا العالم القاتل.

إلى ما قبل سنوات كان الحجاج يتوافدون إلى الغانج ليشربوا ماء الخلود.

هذا الماء نفسه صار قاتلاً اليوم.

الغانج هو أحد الأنهار الأكثر تلوثاً في العالم، يسبب المرض لمن يشرب ماءه ولمن يأكل أغذيةً مروية بمياهه.

كان ياما كان، كان هناك بحر

كانت بحيرة، واحدة من أكبر أربع بحيرات في العالم، ولهذا كانوا يسمونها بحراً. بحر الأورال.

لم يبق إلا القليق من تلك الأمواه المسممة بالنفايات الصناعية وفضلات الأسمدة الكيماوية وهجرة الأنهار التي حول المهندسون مجاريها.

تحولت المياه العذبة إلى مالحة والملح أمحل التربة.

بعض السفن التي كانت سفن صيد تحولت الآن إلى أشباح، تقبع مدفونة على الضفاف.

تُسمع في بعض الأحيان أصوات تعلن عن الانبعاث.

لا أحد يصدقها.

سيكون علينا استبدال الكوكب

الرب يحظر أن تتبع الهند ذات يوم طريق التطور على النمط الغربي. الإمبريالية الاقتصادية لجزيرة صغيرة وحيدة، هي المملكة البريطانية، تُقيِّد العالم بأسره. فإذا ما عمدت أمتنا ذات الثلاثمئة مليون نسمة إلى تطبيق هذا النموذج، فسوف نكون جراداً قادراً على جعل العالم كله قاحلاً.

(مهاتما غاندي، تشرين الأول/أكتوبر 1926)

بلاد اسمها زبالة

في العام 1997، اكتشف الملاح تشالز مور أرخبيلاً جديداً جنوبي المحيط الهادي. الأرخبيل المكون من زبالة، تزيد مساحته ثلاث مرات على مساحة إسبانيا.

الجزر الخمس التي تشكل تلك المزبلة الشاسعة تتغذى بالبلاستيك والإطارات المستعملة والكثير من الفضلات الأخرى التي تلقي بها الحضارة من المدن إلى البحر المفتوح.

في العام 1013 بدأتْ حملة لمنح مرتبة دولة لهذه البلاد التي يمكن أن يكون لها علَمها الخاص.

سحرة قيد التدريب

منذ بدايات هذه الألفية، يوجد خبراء يعملون من أجل إنقاذ البشرية في مختبرات جديرة بالدكتور فرانكشتاين.

لقد استقروا في جزر الكايمان، ولكن ليس من أجل التهرب من الضرائب، مثلما قد يفكر من يسيؤون الظن، بل لاختراع أساليب جديدة للقضاء على سخونة الكوكب ولعنات أخرى.

فمن أجل مكافحة الكارثة المناخية، زرعوا غيوماً في السماء، بينما هم يبردون الأرض بإطلاق قذائف كبريت على الجو المحيط وما بعد الجو المحيط. ومن أجل القضاء على البعوض، استولدوا ملايين الذكور العقيمة، ويقوم ذكور البعوض المحسنيين جينياً هؤلاء، بخداع البعوضات الإناث بوعود حبٍّ، لكنهنّ لا ينجبن مطلقاً.

سيارات

بينما الدعاية تقدم، في التلفزيون، أجساد سيارات أكثر إيروتيكية من الأجساد البشرية العارية، تحول تأليه العجلات وعدم استخدام الأرجل إلى مرض عالمي.

في بدايات هذا القرن، تكشف استطلاعات الرأي العالمية عن معلومات شديدة البلاغة: معظم الناس المستطلعين أجابوا

أن أسوأ كارثة يمكن أن تحدث لك هي أن يسرقوا سيارتك ولا تستطيع استردادها.

أحجية

اجتمع الأصدقاء على مأدبة عظيمة، وكان هناك شرط وحيد: سيأكلون وعيونهم مغطاة بعصابة.

في النهاية طلب منهم الطاهي:

- فليقل كل فم ما الذي أكله.

كان رأي الأغلبية:

- ما أكلناه له مذاق الدجاج.

كان الدجاج هو الحيوان الوحيد غير الموجود في قائمة الطعام، لكن أحداً لم يناقش المسألة. ففي نهاية المطاف، لم يعد للدجاج نفسه مذاق الدجاج، لأن لكل شيء الآن مذاق كل شيء أو مذاق لا شيء، وفي أزمنة الزي الموحد الإجباري هذه، صارت فراخ الدجاج تُصَنَّع بالجملة، مثلما هي الأصداف البحرية والأسماك.

ومثلنا نحن.

ثمن التقوى

خمسة وعشرون ألف فيل يسقطون قتلى كل عام، بضربات الفؤوس أو بإطلاق الرصاص عليهم من طائرات الهيلوكبتر، كي تتحول أنيابهم إلى أدوات ورع ديني.

يُثمَّن العاج بأسعار مرتفعة جداً لصناعة ملائكة السماء أو قديسي الأرض.

من مجازر الفيلة تخرج أفخر المنحوتات للعذراء المقدسة والطفل بين ذراعيها، الطفل المقدس الذي يرمز إلى الطيبة والرحمة. وتتيح أنياب الفيلة المقتولة نحت أشد تماثيل احتضار يسوع تأثيراً في النفس.

نبوءات

من هو أفضل من رسم السلطة الكونية قبل قرن من وجودها؟

لم يكن فيلسوفاً، ولا عالم اجتماع، ولا عالم سياسة.

إنه طفل يدعى نيمو. في العام 1905 كان ينشر مغامراته التي يرسمها وينسور ماككاي، في صحيفة نيويورك هيرالد.

كان نيمو يحلم المستقبل.

في أحد أكثر أحلامه صواباً، وصل إلى المريخ.

وكان الكوكب التعيس يخضع لرجل الأعمال الذي سحق منافسيه وراح يمارس الاحتكار المطلق.

المريخيون كانوا يبدون بلهاء، لأنهم يتكلمون قليلاً، وتنفسهم قليل.

وقد عرف نيمو السبب: سيد المريخ استحوذ على الكلمات وعلى الهواء.

مفتاحا الحياة، ومصدرا السلطة.

سحرة

في العام 2014، اقترح صندوق النقد الدولي صيغة مؤكدة النجاح لانقاذ العالم من الأزمة الاقتصادية:

تخفيض الحدّ الأدنى للأجور.

لقد اكتشف خبراء صندوق النقد الدولي أن هذا الحسم سيزيد عروض العمل لفئة الشباب: الشباب سيكسبون أجوراً أقل، ولكن يمكنهم تعويض الفرق بالعمل أكثر.

هذه الأدمغة الكريمة تستحق الشكر العالمي. لكن الأيام والسنين تمضي، ولم يوضع بعد موضع التنفيذ، على المستوى العالمي، هذا الاختراع العبقري.

توليفة موجزة جداً للتاريخ المعاصر

منذ بضعة قرون مضت، تنكر الرعايا كمواطنين وفضّلت الأنظمة الملكية أن تسمي نفسها جمهوريات.

الدكتاتوريات المحلية التي تقول إنها ديمقراطية، تفتح أبوابها لمرور عبودية السوق العالمي. في هذا العالم، مملكة الأحرار، جميعنا واحد. ولكن، هل نحن واحد أم أننا لا أحد؟ هل نحن شارون أم مشترون؟ بائعون أم مباعون؟ مراقِبون أم مراقَبون؟

نعيش سجناء وارء قضبان غير مرئية، تخوننا الآلات التي تتظاهر بطاعتنا وتكذب، بإفلات من العقبات موجه آلياً، لخدمة أسيادها.

الآلات تحكم في البيوت، في المصانع، في المكاتب، في المزارع، في المناجم وفي شوارع المدن، حيث نشكل نحن المشاة إزعاجاً يعرقل حركة المرور. والآلات هي من يأمر في الحرب أيضاً، حيث تقتل مثل المحاربين ذوي الزي العسكري أو أكثر.

تشخيص للحضارة

في مكان ما من إحدى الغابات، علّق أحدهم: كم هم غريبو الأطوار هؤلاء المتحضرون. جميعهم لديهم ساعات ولا وقت لدى أي منهم.

تقرير إكلينيكي لزماننا

علم الطب يطلق متلازمة أورشليم على المرض الذي يعاني منه هناك الكثير من السائحين.

فهؤلاء الزوار إلى المدينة المقدسة، عاصمة ثلاث ديانات، يشعرون بكشف إلهي مفاجئ: يشعرون أنهم هم أنفسهم شخصيات من الكتاب المقدس؛ فيبدؤون بالصراخ من فوق أي كرسي أو مقعد، في وسط الشارع، بمواعظ دينية، يمليها عليهم الرب، تتوعد غير المنصاعين بعذاب أبدي في لهيب الجحيم.

بعيداً عن القدس، هنالك مرض مشابه يصيب عادة نزلاء البيت الأبيض ورؤساء آخرين تلقوا، من السماء مباشرة، الأمر بإبادة الخاطئين.

حِكَم/1

أتذكر ذلك، بل إنني آراه: أم بيبي بارينتوس، تتأرجح في أرجوحة النوم، محاطة بخضرة النباتات في مزرعتها بحيِّ بوثيو.

المكر يضفي بريقاً على عينيها الغاطستين في تجاعيد البشرة القاتمة، والمخططة بألف تجعيدة، بينما بيبي وأنا نشكو، بالتبادل، من الأصدقاء في العمل أو الحي، ممن يشعرون بأنهم

مضطرون إلى أن يكونوا أهم من الآخرين، ويمضون بالمرفقين مفتوحين، بمظهر من يعانقون.

عندئذ قالت العجوز المعتادة على الكلام القليل والمعنى الكبير:

- مساكين أولئك الذين يعيشون وهم يحسبون.

حِكَم/2

يعمل إنيلتي بيريرا في فندق بيرابوليس الأرجنتيني. بينما أنا وهيلينا نقرأ الصحف ونحن نتناول الفطور، اقترب منا وإبريق القهوة في يده. كلمنا كعجوز حكيم، ولكنه شاب وعارف:

- من أجل قراءة أخبار جديدة، ليس هنالك أفضل من الصحف القديمة. يقولون إن السينما القديمة كانت صامتة. يا للبلاهة. لم تكن صامتة قطّ. لم تكن تتكلم لأنها تعرف أن الصمت أفضل.

ما أخبرني به النهر

آنذاك، في العام 1860 وأكثر قليلاً، جرى تعليق الغاوتشيتو خِيل من قدميه وذبحه على يد قوى الأمن.

منذ ذلك الحين، تتزايد مظاهر التقديس الشعبية التي تكرم ذكراه وتطلب منه العون على تحمّل الحياة تجنب الموت.

الغاوتشيتو خِيل الذي يقدسه الشعب وينظر إليه بورع، أدين بتهم مختلقة. فهو لم يرتكب سوى جريمة الانشقاق: لقد رفض الانظمام إلى صفوف الجنود الأرجنتينيين والبرازيليين والاروغوائيين الذين غزوا الباراغواي، وعلى امتداد خمس سنوات من المجازر لم يتركوا دسكرة قائمة أو إنساناً حياً.

ـ أنا لا أريد الذهاب لقتل اخوتي البارغوئيين ـ هذا ما قاله الغاوتشيتو خِيل، وكان هذا آخر ما قاله.

البطل

أورلاندو فالسب بوردا هو من روى لي هذه القصة الحزينة، وقد حدثت في كولومبيا، خلال حرب الألف يوم.

بينما كان القرن العشرون يولد، كان الجنرال خوسيه ماريا فيريرا يقاتل في محيط نهر مجدلينا. وفي مناورة بارعة، تقدم باتجاه معاكس لجنوده والتجأ إلى تجويف في شجرة ثيبا عملاقة، وكانت الشجرة الوحيدة المعتبرة التي تنتصب وسط ذلك العدم الفسيح.

انتظر جاثياً ومتقوقعاً على نفسه.

كان يرى الرصاصات، كأنها زنابير تئز بحثاً عنه، فراح يتلعثم بصلوات، متوسلاً: أيتها الثيبا، يا شجرة الثيبا، لا تخذليني،

إلى أن فقد التحكم بجسده، فدمدم:

- إذا كانت للدم رائحة الخراء، فأنا جريح.

لحسن الحظ أن شجرة الثيبا وحدها هي التي سمعته.

وهي تعرف كيف تحفظ أسرار بني البشر.

المؤرخ

في الثامن عشر من شهر آب/أغسطس 1947، انفجر مستودع طوربيدات في حي سان سيفريانو بمدينة قادش.

خوان مارتينيث، البيريكون، روى هذه الكارثة بطريقة قادشية جداً:

- كان هناك جنديا بحرية عند المدخل. صارا مثل ورق السجائر، ملتصقين بالجدار.

- شوهد صبي يلف ويدور في الجو، وحين سقط على الأرض كان عارياً.

- كان الوضع جنوناً. من لم يطلق رصاصة على نفسه، عُلق من زوره، والجميع يتبرزون خوفاً.

ـ أنا ذهبتُ لأشرب، لكنني لم أستطع. كان فم القارورة ينحني إلى أن صار ينظر إلى أسفل.

ـ على الجسر، اقتلع الانفجار رأس جحش، لكن ذلك الجحش واصل المشي.

ـ لقد حمتنا الأسوار التي تحمي المدينة. فهي التي وجهت القنابل نحو السماء. وقد رأيتُ النجوم تهرع راكضة إلى أعلى.

ولكن، بعد عشرة أيام من ذلك، في ميدان مصارعة الثيران في ليناريس، سقط مصارع الثيران مانوليتو صريعاً بطعنة من قرن ثور. فلم يعد هناك في قادش من يتكلم عن كارثة الانفجار.

دعوى

في شهر حزيران 2004، انقسمت قرية سان روكي، بقادش إلى قسمين: نصفها مع البقرة، وهي ملكية خاصة، والنصف الآخرمتحمس للحمار، وملكيته تعود للبلدية.

ما حدث أن أحد سكان القرية رفع دعوى قضائية مطالباً بتعويض لأن الحمار لاحق البقرة بنوايا ليست شريفة؛ فوقعت البقرة الهاربة من مطاردته في الهاوية وماتت. تعلل محامي الحمار بأن البقرة هي التي استثارته بخروجها إلى الحقل عارية تماماً ومكشوفة الثدي.

طالب محامي البقرة المتوفاة بتعويض، لأن زبونته كانت ضحية مضايقة جنسية.

محامون آخرون شعروا بإغواء دس أنفهم الحقوقي في القضية. فانتهى الأمر بالبقرة المتوفاة والحمار إلى الغرق في النسيان.

أوسع المؤرخين شهرة

كان يوليوس قيصر مراسلاً حربياً لمعاركه وحروبه تحديداً.

فقد اهتم بأن يكتب، للأجيال اللاحقة، الرواية الدقيقة جداً لمآثره.

«تعليقات على حرب بلاد الغال» كانت عمله الأشهر. وقد حوّل الزمن هذا عمل الذي يشيد فيه مؤلفه بمزاياه الحربية إلى عمل كلاسيكي، مع أنه لم يولِ أي اهتمام إلى تضحيات جنوده الذين لم يتذمروا ولم يتعبوا قطّ.

يوليوس قيصر، الإمبراطور والإله، مؤرخ نفسه، كرس موهبته الأدبية كلها لتلك الغزوة التي قتل فيها مليوناً من أهالي الغال وحكم بالعبودية على المتبقين أحياء منهم.

الصامت

يسمونه حلاقاً، بالرغم من أنه لا يحلق ذقوناً ولا يقص شعراً.

يعيش في أعماق البحار التروبيكالية، ولا يخرج من هناك.

يقدم خدماته بالقرب من الأحياد المرجانية، في صالون حلاقته المحروس بشقار البحر والإسفنج متعدد الألوان.

وفي صف طويل، تنتظر الأسماك المتسخة بالجراثيم والطفيليات والفطور.

فيقوم بتنظيفها، وبصمت على الدوام.

إنه الحلاق الذي لا يتكلم. لا يتفوه ولا بكلمة واحدة مطلقاً.

الحكاء

ولد كيمان ساناري في دسكرة تابعة لمدينة باركيسميتو الفنزويلية، حيث كانت تعيش أشباح كثيرة رافقت طفولته.

وعنها تتحدث قصصه:

قصة من جعل الخفافيش تغني؛

اليقطينة التي يسكنها العفريت آكل الناس؛

الشياطين الخمسة الذين يُشفون المرعوبين؛

الساحر الذي يدير رقبتك ، كي تتمكن من المشي إلى الوراء فقط؛

ومن يقوض الجبال بربطها بحبل؛

من يصطاد حمائم على ارتفاعات شاهقة تتأخر معها أعواماً في السقوط؛

ومن كان يستخدم سترة ذات أجنحة، تحمله طائراً من قرية إلى أخرى، إلى أن سرقها منه نهر ياكامبو، بعد أن ضجر من السباحة وأراد الطيران.

المغني

كان المدرع راغباً في الغناء منذ يوم ولادته البعيد في رملة أورورو.

ففي كل مرة تسقط فيها أولى قطرات المطر، يمضي نحو المستنقع بقوائمه القصيرة بطيئة المشي، كي يسمع غناء الضفادع.

الضفادع تغني متقافزة، وعبثاً كان المدرع يحاول أن يكون صدى لها. فكانت الضفادع، والجعلان والعصافير تسخر من صوته المهمهم.

ظلّت الحال على هذا النحو إلى أن عرض عليه المشعوذ سيباستيان ماماني منحه نعمه الغناء الإلهية، على أن يعطيه المدرعُ الدرعَ التي تغطيه.

ما تبين عندئذ أن تلك الدرع، بعد تحررها من الجسد، تتحول إلى أداة موسيقى شجية.

وفيها، ومنها، غنى المدرع. ولا يزال يغني.

الموسيقي

في كاشي، المدينة المقدسة لطائفة التاميل بالهند، كان يعيش ويعزف أشد عازفي الناي نشازاً في العالم.

يدفعون له جيداً كي يعزف بصورة سيئة جداً.

ففي خدمة الآلهة، كان عزف نايه يعذب الشياطين.

كان أهالي كاشي يقيدونه إلى شجرة بسلسلة حديدية، كيلا يهرب. إذ كانت تأتيه عروض مغرية من كيرالا وميسور ومدن أخرى.

الجميع يريدون الاستحواذ على معلم المهمة الشاقة بأن يكون موسيقياً مرعباً.

الشاعرة

سُميت فيليس، لأن السفينة التي جلبتها تحمل هذا الاسم، ووهياتلي هو اسم التاجر الذي اشتراها.

كانت قد ولدت في السنغال.

وفي بوسطن عرضها النخاسون للبيع:

ـ عمرها ست سنوات! ستكون فرساً جيدة!

جستها وتلمستها أيدٍ كثيرة وهي عارية.

في الثالثة عشرة من عمرها صارت تكتب أشعاراً بلغة ليست لغتها.

لم يصدق أحد أنها هي نفسها مؤلفة تلك الأشعار.

في العشرين من عمرها، أُخضعت فيليس للاستجواب في محكمة مكونة من ثمانية عشر سيداً سامياً بعباءات وباروكات شعر مستعار. وكان عليها أن تلقي أمامهم نصوصاً لفرجيل وميلتون ومقاطع من الكتاب المقدس، وكان عليها أن تُقسم أيضاً بأن القصائد التي كتبتها ليست منتحلة.

ومن مجلسها على كرسي قدمت امتحانها الطويل، إلى أن قبلتها المحكمة: لقد كانت امرأة، وكانت زنجية، وكانت عبدة، ولكنها كانت شاعرة.

الرذيلة

بمدينة منتفيديو، في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، دفع الكابتن خوسيه بونيفيثيو دي توليدو ثلاثمئة بيزو ثمناً لزنجية في الثامنة عشرة من عمرها، تدعى مارتا.

لقد كانت العبدة الأفضل سلوكاً، بلا عيوب ولا نقائص أو رذائل، لكن المشتري طالب باستعادة نقوده. فلدى مارتا رذيلة، وهي أسوأ الرذائل: عندما تتوافر لها أدنى فرصة، تهرب دون أن تُخلّف أثراً.

وبعد هروبها عدة مرات، قام سيدها الجديد بتقيدها بالسلاسل.

قُيدت من قدميها ويديها بأصفاد حديدية، ولم تُبد المرذولة أية شكوى. تقبّلت العقاب بصمت.

ولكنها ما لبثت أن تبخرت بعد أيام قليلة.

لم يبق في الزنزانة سوى أربعة أصفاد وسلسلة حديدية طويلة سليمة.

منذ ذلك اليوم لم يُعرف عنها أي شيء.

التعميد

الطبيب الانكليزي صموئيل كارتوريت هو من عمَّد الاضطراب الذهني الذي يدفع العبيد إلى الهروب.

كان ذلك الجنون يتواصل دون مفر، ولكن صارت له تسمية على الأقل بفضل طيب نوايا ذلك الطبيب: صار يسمى هوس الهروب.

المخطوفة

في أحد أيام العام 1911، اختفت الجيوكندا من متحف اللوفر.

وعندما عادت المختفية إلى الظهور، بعد سنتين من البحث، جرى التأكد من أن عملية السرقة لم تمحو الابتسامة الأشد غموضاً في العالم: ضاعف ذلك من سمعتها.

سيدة العدسة المكبرة

كانت روائية وعالمة آثار.

تحل ألغاز جرائم معقدة أو تنقب عن آثار مفرقة في القِدم. لقد كانت أغاتا كريستي تردّ على التحديات نفسها.

عناوين كتبها تكشف ذلك: جريمة في بلاد ما بين النهرين، مكيدة في بغداد، موت في النيل، موعد في القدس، جريمة في قطار الشرق السريع...

ربما كانت لديها شكوك في أن الحضارات القديمة تخبئ الجرائم والسرقات التي منحتها أصولها، وكان الفضول يدفعها إلى ملاحقة تلك الآثار الممحوة، تلك الآثار الكاذبة: وكان التحري هيركيول بوارو الذي اختلقته هي نفسها، يمنحها العدسة المكبرة.

المعبودة

عندما اعتزلت السينما، العالم بأسره شعر بالترمل منها.

كانت قد ولدت باسم آخر، وبسبب جمالها الجليدي استحقت تسميات «الإلهية»، و«أبو الهول السويدي»، و«فينوس الفايكنغ»...

بعد نصف قرن من وداعها الأضواء، كان خوستو خورخي بادرون، وهو شاعر إسباني يتكلم السويدية بلهجة جزر الكناري، ينظر إلى واجهة متجر في استكهولم حين اكتشف على زجاج الواجهة انعكاس صورة امرأة طويلة ومترفعة، متدثرة بفراء بيضاء، تقف خلفه.

استدار ورآها، ذقن متكبرة، نظارة قاتمة كبيرة، وقال

لنفسه أجل، قال لنفسه لا، قال إنها هي، ليست هي، يمكن أن تكون هي، وبدافع الفضول المحض سألها:

- المعذرة يا سيدتي، ولكن... ألستِ أنت غريتا غابو؟

- لقد كنت - قالت له.

وبخطوات ملكة بطيئة، مضت مبتعدة.

الحَكَم الأولى

اسمها ليًّا كامبوس، وهي برازيلية، كانت ملكة جمال ميناس جيرايس، ولا تزال المرأة الأولى التي مارست التحكيم في ملاعب كرة قدم عديدة بأوروبا والأمريكيتين.

حصلت على اللقب بعد أربع سنوات من الدورات التدريبية والامتحانات، وحصلت على شهادة وكل شيء، ولكن أقوى من صفير صفارتها مازال يتردد صفير جمهور الذكور الغاضبين من الدخيلة.

لقد كان الحَكَمُ حَكَماً على الدوام، وليس حَكَمَة بأي حال. الاحتكار الرجولي كُسر حين اقتحمت ليّا القيادة العليا في الملاعب، بمواجهة اثنين وعشرين رجلاً عليهم أن ينصاعوا لأوامرها ويخضعوا لعقوباتها.

بعض كبار مسؤولي كرة القدم البرازيلية كانوا أول من

استنكر ذلك التدنيس للمقدسات. وكان بينهم من هدّد بالاستقالة، واستحضر آخرون مراجع علمية مشكوك فيها تؤكد أن البنية العظمية للمرأة أدنى متانة من الرجل، مما يحول دون قدرتها على إنجاز تلك المهمة المرهقة.

دخيلة أخرى

هل كان خوان خوانا؟ هل احتلت امرأة عرش القديس بطرس لمدة سنتين وشهر وأربعة أيام؟

هنالك من يقول إن «البابابة» خوانا قد حكمت الفاتيكان منذ العام 855. أكانت كذلك أم لم تكن؟ أهي حقيقة تاريخية أم محض أسطورة؟ ولكن... لماذا لا تزال هذه القضية تستثير غضب الكنيسة والاستنكار العام؟

أكانت قضية خطيرة، وهل لا تزال خطيرة؟

في ديانات أخرى، يوجد أرباب وربات ويمكن للكهنة أن يكونوا كاهنات. أيكون هذا هو السبب بأن هنالك من يعتقد بأن هذه الأديان مجرد شعوذات؟

وأنا أقول، أو أتساءل، لا أدري: ألا يضجر الذكور العُزَّاب من ممارسة حصرية السلطة في الكنيسة الكاثوليكية؟

ليكن مباركاً داليرو

إنني محظوظ بالسكن في شارع بمونتيفيديو يحمل اسم فنان، اسم الموسيقي الأرغوائي داليرو كوستا، وهذا الأمر معجزة في هذه المدينة التي تسمى شوارعها بأسماء عسكريين وسياسيين وشخصيات بارزة من التاريخ العالمي.

الحق في النهب

في العام 2003، كان سمير، وهو صحفي مجرب من العراق، يقوم بزيارة لبعض متاحف أوروبا.

وفي متحف إثر متحف، كان يجد روائع مكتوبة في بابل، وأبطالاً وآلهة منحوتة في هضاب نينوى، وأسوداً طارت من آشور...

اقترب أحدهم، وعرض عليه المساعدة:

- أأستدعي طبيباً؟

انحنى سمير، وكان وجهه ينعصر بين يديه.

تلعثم وهو يبتلع الدموع:

- لا، أرجوك، إنني على ما يرام.

ثم أوضح بعد ذلك:

- يؤلمني، بكل بساطة، أن أرى كم سرقوا وكم سيسرقون.

بعد شهرين من ذلك، أطلقت أميركا الشمالية غزوها. متحف بغداد الوطني نُهب. فُقد مئة وسبعون ألف عمل أثري.

أقسم لك

في العام 2014، للمرة الواحدة بعد الألف وعدت الأمم المتحدة بمهابة بأنها ستعمل على إجراء استفتاء كي تحدد إذا ما كان أهالي الصحراء الغربية سيصوتون من أجل الاستقلال أم أنهم يفضلون البقاء كغنيمة لدى المغرب.

مرة أخرى، المرة الألف، أقسمت الأمم المتحدة على أنها ستحترم وتفرض احترام النتيجة.

لكن تلك الاستشارة الجماعية لم تتحقق قطّ، لسبب بسيط: المغرب رفض تنفيذ الوعد الذي تعهد به أمام العالم وبقي مالك وسيد الأرض الصحراوية وأهلها، الأرض وباطن الأرض الغني بالمعادن، ومياه البحر المسكونة بحشود لا تحصى من الأسماك.

لقد واصل الوطنيون الصحراويون الإعلان، دون جدوى، عن إرادتهم بالاستقلال، وانتهى الأمر بكثيرين منهم إلى السجن أو المقبرة بسبب جريمتهم التي لا تغتفر بالنضال كي يكونوا أحراراً.

حرب المستقبل

في العام 2012 كان براندون بريانت يعمل في قاعدة جوية في صحراء نيومكسيكو الأمريكية.

كان طياراً بلا طائرة، فعن طريق أربع عشرة شاشة وعدة لوحات مفاتيح، كان يوجه الطائرات بلا طيار، المسماة درونز، عن بُعد عشرة آلاف كيلومتر.

ذات مرة، ظهر على الشاشات بيت ريفي بأفغانستان، فيه حظيرة وكل شيء. وكانت تُرى أدق التفاصيل.

خمس عشرة ثانية: من بعيد، أصدر القائد الأمر باطلاق النار. نبَّه براندون القائد إلى أنه رأى على إحدى الشاشات طفلاً يركض في محيط البيت. ست ثوان: تكرر صدور الأمر. خمس ثوان: ضغط براندون الزر. ثلاث ثوان: أسقطت طائرة الدرون صاروخاً. ثانيتان: وميض لهب وانفجار، الصاروخ دمر البيت، انهار البيت وكذلك الطفل.

لم يبق سوى الدخان.

- أين الطفل؟ - سأل براندون.

الآله لم ترد.

كرر براندون السؤال.

أخيراً قالت الآلة:

ـ لم يكن طفلاً. لقد كان كلباً.

ـ كلب بساقين اثنتين؟

واستقال براندون بريانت من وظيفته العسكرية.

افتراءات

يقولون إن الإنسان هو الذئب على الإنسان.

ولكن لا يقوم أي ذئب بقتل ذئب آخر.

فالذئاب ليست متفرغة، مثلنا، للإبادة المتبادلة.

للذئاب سمعة سيئة، ولكن ليسوا هم من يحولون العالم إلى مستشفى مجانين هائل ومقبرة عامرة.

الحرب ضد الحرب

بينما كان القرن الحادي والعشرين يولد، مات بيرتي فيلستياد عن عمر مئة وستة أعوام.

لقد مرّ بثلاثة قرون، وكان الناجي الوحيد من مباراة كرة قدم فريدة، جرت في يوم عيد الميلاد عام 1915. لعب تلك المباراة الجنود البريطانيين والجنود الألمان، في ملعب مرتجل بين الخنادق. ظهرت كرة، آتية من حيث لا أحد يدري، وراحت

تتدحرج، دون أن يُعرف كيف، وعندئذ تحول ميدان المعركة إلى ميدان لعب. رمى الأعداء أسلحتهم في الهواء وركضوا لتنازع الكرة.

لعب الجنود قدر ما استطاعوا، إلى أن ذكّرهم الضباط الغاضبون بأنهم موجودون هناك من أجل أن يَقتلوا ويُقتلوا.

انتهت الهدنة الكروية، وعادت المجزرة؛ لكن الكرة كانت قد فتحت فسحة لقاء عابر بين أولئك الرجال المجبرين على تبادل الكراهية.

ثورة في عالم كرة القدم

مدفوعون بلاعب استثنائي يدعى سقراط، وكان يحظى بأكبر قدر من الاحترام والمحبة، قام اللاعبون البرازيليون منذ سنوات، في زمن الدكتاتورية العسكرية، باقتحام إدارة نادي كورينثيانز، أحد أكثر الأندية نفوذاً في البلاد.

أمر غريب وغير مألوف، لم يحدث من قبل قطّ: اللاعبون يقررون كل شيء، في ما بينهم جميعاً، بالأغلبية. يناقشون ويصوتون، بصورة ديمقراطية، على مناهج العمل، وأنظمة اللعب الملائمة أكثر من سواها لكل مباراة، وتوزيع النقود المتجمعة وكافة الأمور الأخرى. على قمصان الفريق كانت تقرأ كتابة: ديمقراطية كورينثيانية.

بعد سنتين، استعاد المسؤولون المبعدون سيطرتهم وأمروا بوقف ذلك. ولكن خلال الوقت الذي دامته الديمقراطية، قدم كورينثيانز، بقيادة لاعبيه، أجرأ وأجمل كرة قدم في البلاد، واجتذب أضخم الحشود إلى الستادات وكسب مرتين متتاليتين بطولة سان باولو.

قدم لي كأساً من فضلك

أول كأس عالمية بكرة القدم جرى التنافس عليها في الأروغواي، عام 1930.

الجائزة: كأس مصاغة من الذهب الخالص ومرصعة بأحجار كريمة، وقد حفظها مسؤول كرة القدم الايطالية أوتوريو باراسي في علبة حذاء وضعها تحت سريره، إلى أن سلّمها لسلطات الفيفا.

في العام 1966، حين انتهت مباريات كأس العالم بكرة القدم التي جرت المنافسة عليها في إنكلترا، سُرقت كأس الفوز من خزانة زجاجية في لندن. لم يَعثر لها أفضل عملاء سكوتلاند يارد على أي أثر، إلى أن عثر كلب، يدعى بيكلز، على الكأس ملفوفة بصحف، في حديقة بضواحي لندن. وقد اعتُبر بيكلز بطلاً وطنياً.

السرقة التالية وقعت عام 1983. الكأس المتحولة إلى سبائك ذهبية اختفت في السوق السوداء بريو دي جانييرو.

منذ ذلك الحين، يتلقى الفائز في كل بطولة عالمية نسخة من كأس الفوز، أما الكأس الأصلية فتُرى ولا تمس في خزانة الفيفا في زيورخ.

المعبود الحافي

بفضل سايلين مانا كسبت الهند الميدالية الذهبية في دورة الألعاب الأسيوية عام 1951.

لقد لعب طوال حياته مع نادي موهون باغانا دون أن يتقاضى أجراً، ولم يخضع قطّ لإغواء العقود التي تعرضها عليه الأندية الأجنبية.

كان يلعب حافياً، وكانت قدماه في ميدان الفريق الخصم أشبه بأرنبين من المُحال الإمساك بهما.

لقد كان يحمل دوماً، في أحد جيوبه، الربة كالي، تلك التي تعرف كيف تصارع الموت صراع الند للند.

كان عمر سايلين حوالي تسعين عاماً عند وفاته.

الربة كالي رافقته في رحلته الأخيرة.

وكانت مثله، حافية.

إنني أعترف

سأكشف سري.

لا أريد، ولا أستطيع، أن أحمله معي إلى القبر.

أنا أعرف لماذا حصلت الأرغواي على بطولة العالم في العام 1950.

تلك المأثرة تحققت بفضل شجاعة أوبدوليو، ومكر شيافينو، وسرعة جيجيا. أجل. وبفضلي أنا أيضاً لسبب إضافي.

كنت في التاسعة من عمري وكنتُ متديناً جداً، كنت تقياً شديد التدين لكرة القدم وللرب، بهذا الترتيب.

في مساء ذلك اليوم قضمت أظفاري، ويديّ أيضاً، وأنا أستمع، من المذياع، إلى رواية كارلوس سولي لما يحدث في استاد ماراكانا.

هدف للبرازيل.

آه.

خررت جاثياً على ركبتي، وتوسلت إلى الله باكياً، أيها الرب، يا ربي الحبيب، قدم لي معروفاً، إنني أتوسل إليك، ولا يمكنك أن ترفض تحقيق هذه المعجزة.

وقدمتُ إليه عهودي.

نفذ الرب ما طلبته منه، الأرغواي ربحت، ولكنني لم أتمكن قطّ من تذكر ما الذي تعهدتُ به.

لحسن الحظ.

فربما أكون قد نجوت من المضي مردداً «أبانا الذي في السماء» طوال سنوات وسنوات، بينما أنا أتجول تائهاً وشبه نائم في شوارع مونتيفيديو.

الكرة كأداة

في مباريات كأس العالم لعاميّ 1934 و1938 كان اللاعبون الإيطاليون والألمان يحيّون الجمهور براحات أكفهم ممدودة إلى أعلى. النصر أو الموت، هكذا كانت أوامر موسوليني. كسب مباراة دولية أهم، للناس، من الاستيلاء على مدينة، يقول غوبليز.

في مونديال عام 70، نسبت دكتاتورية البرازيل العسكرية لنفسها مجد منتخب بيليه: لا يمكن لأحد أن يوقف هذه البلاد، هذا ما كانت تعلنه الدعاية الرسمية.

في مونديال 78، احتفل العسكريون الأرجنتينيون بانتصارهم متأبطين ذراع هنري كيسنجر الذي لا يتخلف أبداً، بينما كانت الطائرات تلقي سجناء أحياء إلى البحر.

في عام 80، في الأورغواي، كسب المنتخب المحلي ما سُمي «الموندیال المصغر»، دوري بين أبطال عالميين. الدعاية الديكتاتورية روجت الانتصار كما لو أن اللاعبين هم الجنرالات. ولكن الحشود تجرأت الحشود عندئذ على الصراخ، أول مرة، بعد سبع سنوات من الصمت الإجباري. كُسر الصمت بزمجرة المدرجات:

ستنتهي، ستنتهي، الدكتاتورية العسكرية ستنتهي...

غشاشون، لكنهم صريحون

في الرابع عشر من نيسان/أبريل 1997، نشرت مجلة «سبورت المصورة» استطلاع رأي كاشف، أشرف عليه الطبيب المهشور بوب غولدمان، حول موضوع المخدرات/العقاقير في الرياضات الأولمبية.

ضمنت المجلة إغفال ذكر أسماء الرياضيين الذين قالوا الحقيقة دون خوف من النتائج.

كان السؤال:

هل تتقبل تلقي مادة محظورة إذا ما ضمنوا لك أنه لا يمكن لأي رقابة أن تكتشفها وأنك ستكسب كل البطولات؟

أجاب بنعم: 159 رياضياً.

وقال لا: 3 رياضيين فقط.

فاسقون

قبل بضعة قرون من تدخل أوروبا في أميركا، كان شعب المابوتشي، وشعب التيهويلتشيس وغيرهما من الشعوب الهندية في أميركا الجنوبية يختمون احتفالاتهم باللعب بملاحقة كرة بأغصان أشجار معقوفة.

في العام 1764، أدان المجمع المسكوني المجتمع في سنتياغو دي تشيلي تلك اللعبة، بكلمات من رئيسه، الأسقف مانويل دي آيالا، بسبب الاختلاط، لأنها لعبة يلعبها رجال ونساء، وباختلاط الجميع بعضهم ببعض.

تلك اللعبة صارت تسمى اليوم هوكي، ولم تعد خطيئة.

المدان

في العام 1572، حُبس الشاعر فراي لويس دي ليون في زنزانة في بلد الوليد.

في زنزانة منفردة، أمضى خمس سنوات من حياته.

محكمة التفتيش المقدسة أدانته لترجمته إلى اللغة القشتالية نشيد الإنشاد، كتاب العهد القديم الذي يحتفل بالرغبة الإنسانية والشغف الإنساني:

افتحي لي يا صديقة،

فحبيبك هذا ينتظر

حمامتك.

افتحي لي، فالسماء ماطرة...

أعذب من النبيذ قبلات فمك.

المحظور

لم يقبل أحد نشر سخريات مارك توين الضارية ضد المجازر التي تقترفها القوات الإمبراطورية الأمريكية في جزر الفلبين وأمكنة أخرى.

في العام 1901، علق يقول:

الموتى وحدهم يتمتعون بحق التعبير.

للموتى وحدهم الحق بقول الحقيقة.

المحبوب والبغيض

مونتيرو لوباتو، الكاتب الذي منح ومازال يمنح أكبر سعادة لأطفال البرازيل،

أفضل من عرف كيف يعلمهم حب أسرار الأرض التي ولدوا عليها،

الكاشف الحميم عن البرازيل العميقة،

الذي دفع سجناً ثمن دفاعه عن البترول البرازيلي وتشهيره بتطواطئ الحكومات مع العمالقة الذين يديرون تجارة الذهب الأسود وثروات منجمية أخرى،

توفي في 1948، وهو في الستين وبضع سنوات، بلا بيت وبلا أموال.

أسمه كان محظوراً في الصحف والإذاعات، وطردت كتبه من المكتبات العامة ومن المدارس العامة، وأُحرقت في الكنائس، لأنها لا تتعامل مع الدين بالاحترام الواجب.

فلتكن الضحكة مباركة دوماً

كان داركي ريبيرو يدخل إلى الغابة ويخرج منها كما لو أنها بيته.

يحمل معه متاعاً متواضعاً، كتاب وحيد وحسب: نسخة إسبانية قديمة من دون كيخوتي دي لامنتشا.

يستلقي في أرجوحة النوم متأرجحاً بين شجرتين في الأمازون الوارفة، كان داركي يستمتع بكتابه المفضل. ومع كل صفحة

يطلق قهقهة، فيضحك الأطفال معه. لم يكن أي منهم يعرف القراءة، ولكنهم جميعاً يعرفون كيف يضحكون.

النساج

في أوكساكا، وفي ورشة ريميخيو ميستاس يتم تعلم أن الملابس أشياء حَيَّة.

هنالك فضوليون يطلون، يجتذبهم جمال البلوزات والأثواب النسائية المطرزة والمزركشة، والشالات والمناديل، لكن هذا ليس سوى نقطة انطلاق إلى فضاء لقاء.

ريميخيو هندي من هنود سابوتيكا نظّم جماعة نساجين من مختلف الجماعات البشرية المكسيكية، وفي نسجهم كانوا يستعيدون جذورهم وفخرهم:

ـ الثياب ليست مجرد خرقة ـ يقول ريميخيو، ثم يوضح أن للملابس روحها وأنها تنقل طاقة، حين تولد من عمل أيدٍ مُحِبَّة.

ـ القماش الجيد يقول لك: أنا جِلدك الثاني.

وللتأكد من أنه لا يكذب، يكفي أن تلمس أي قطعة من منسوجاته.

صانع القبعات

في إحدى قرى إقليم تشياباس ينسج أندريس ديلا كروس غونساليس قبعات من السعف. كل قبعة تتأخر طويلاً في الولادة والتشكل. فبعد أن يُغلى السعف، يوضع ثلاثة أيام تحت الشمس وثلاثة أيام أخرى في سكون القمر الذي يُبَيّضُها.

أندريس يحتج، دون جدوى، لأن الشباب يفضلون القبعات المستوردة، ولكنه لا يزال يدافع عن قبعاته التي تستحق أن تُذكر.

لقد ورث هذه الفنون السرية عن أجداده، وسوف ينقلها إلى أبناء الأبناء، كيلا تنقطع أبداً سلسلة الزمن.

الأقمشة والساعات

تحت عين الشمس تغزل وتنسج قرية دوغون، في جمهورية مالي الأفريقية.

المنسوجات التي تتغذى بالضوء، تلمع وتضحك. صانعوها يسمونها كلمات.

وبالمقابل، تكون صامتة وقاتمة الأقمشة بنات الليل.

لا أحد يرغب في النسج بعد الغسق. فمع ذهاب الشمس، تُغلق أبواب السماء، ومن ينسج يُعرض نفسه لخطر الإصابة بالعمى.

النجار

أمضى دانييل وينبيرغ وقتاً لا بأس به في البحث عن رسم يُظهر يسوع المسيح في ورشة النجارة، من أجل تزيين كتاب لمنظمة العمل الدولية.

لم يجد شيئاً: في تاريخ الفن كله لا يظهر المسيح عاملاً.

وأخيراً، بعد كثير من البحث والسؤال، عثر دانييل، في أواكساكا، على رسم منقوش على الخشب، يعود للعام 1960، لرسام مجهول، تظهر فيه الأسرة كلها، والطفل يسوع يساعد أباه في ورشة النجارة.

أمر غريب جداً.

المكتشف

لم يقتصر لويس باستور فقط على اختراع العملية الكيميائية التي تحمل اسمه وتحمي أغذيتنا.

بل اكتشف كذلك، إضافة إلى لقاحات أخرى، اللقاح الذي ينقذنا من الحيوانات المصابة بداء الكَلَب (السُّعار).

لكن أشد معاركه صعوبة كانت ضد نوع آخر من السُّعار: سُعار الحسد لدى كثير من زملائه.

في أواسط القرن التاسع عشر، كانت صحف باريس تناقش أي مستشفى للمجانين سيكون الأفضل لحبس باستور فيه: مستشفى شارانتون أم سانت آن.

فارس النور

في العام 1895، حين كان في مرحلة الخروج من الطفولة، شهد إينشتاين رؤيا فتحت له أبواباً مجهولة: فقد حلم، أو تخيل، أنه ينطلق عبر السماوات ممتطياً شعاع نور.

بعد سنوات من ذلك، قادته تلك الأبواب إلى نظرية النسبية وإشراقات أخرى.

النحات

في شهر أيار/مايو 1649، فقدت إشبيليا الأريج الذي طالما منحها الشهرة والسلوى.

فقد صارت مدينة أزهار البرتقال تعبق برائحة الموت.

هاجمها الطاعون، الناس يحفرون قبوراً ويستلقون فيها ليموتوا بينما أشجار البرتقال تطرح دموعاً بدل الأزهار.

النحات خواكين مارتينيث مونتانييس الذي أبدع على امتداد

حياته، لمعابد إشبيلية، تماثيل ليسوع وللقديسين في معابد إشبيلية، أراد أن ينحت الأريج المفقود.

كرّس لهذه المهمة كل ما تبقى لديه من طاقة، ليلة إثر ليلة، ويوماً إثر يوم.

وبينما هو ينحت أزهاراً، مات.

يقال إن إشبيلية انبعثت لأنه قدم قرباناً لها القليل المتبقي له من الحياة. ويقال إن أزهاره، تلك التي ولدت من عمل يديه، قد طهرت هواء المدينة المحتضرة.

الطاهي

في أزمنة قديمة، سلّم ملك ماني في يوكاتان إلى الطاهي حيواناً تم اصطياده للتو، وطلب منه أن يطهو له أفضل جزء منه.

وهكذا تذوق الملك اللسان المشوي.

بعد قليل، سلّم الملك للطاهي حيواناً آخر تم اصطياده حديثاً وكلفه بأن يطهو له أسوأ جزء منه.

فكان هناك، مرة أخرى، لسانٌ في الطبق.

غضب الملك، ولكن الطاهي كان على حق.

الإطفائي

منذ ولادته كان إيميليو كاسابلانكا فناناً رساماً ومحباً للسهر لا شفاء له.

بعد إحدى جلسات شرابه الطويلة، أضاع إيميليو طريقة عدة مرات في متاهة المدينة القديمة بمونتيفيديو، إلى أن تمكن أخيراً من العثور على مقر الحزب الاشتراكي، حيث كان مأواه. وبمشقة كبيرة صعد إلى العلية وتهاوى على الفراش. كانت سيجارة مشتعلة تتدلى من يده.

انطفأ الليل وانطفأ إيميليو أيضاً. أما السيجارة فلم تنطفئ.

عند الفجر، وصل «المسدس الرشاش» دوتي لإنجاز عمله المعهود بتنظيف المكان، وأحس عندئذ برائحة حريفة في الجو.

الدخان يأتي من العلِّية. تسلق المسدس الرشاش السلم قافزاً ودفع الباب: ومن خلال الدخان، تمكنت عيناه المتأججتان من لمح ألسنة لهب آخذة بالتعالي من الفراش الذي ينام عليه إيميليو بعمق.

إنه بعيدٌ عن الماء، فالماء في الحمام أو المطبخ، ودوتي المسدس الرشاش الذي اكتسب هذا اللقب منذ مأثرته تلك، لم يتردد طويلاً. جعل من أمعائه قلباً جريئاً، وبحركة واحدة من يديه أنزل بنطاله، وبدأ الرش.

فنانون

لوثيو أورتوبيا، عامل بناء فوضوي، كان يُنتج شيكات متقنة، لكنها مزيفة، من أجل التخريب على الدكتاتورية الإسبانية.

الحكومات تصنع نقوداً لتمويل المضاربات، أما لوثيو فكان يحلم بتمويل الثورة. كما أنه كان يستغل ساعات فراغه للسطو على مصارف، بينما كانت تلك المصارف تسطو على بلدان.

مُزَيِّفٌ آخر من ذلك الزمان، يدعى أدولفو كامينسكي، كان صباغاً ورساماً. وبفضل اتقانه الجيد لمهنتيه، تمكن ملاحَقون كثيرون من الهرب ببدلات عسكرية جرى تغيير لونها. وفي أوج الاحتلال النازي لمدينة باريس التي يسودها الرعب، لم يكن أدولفو يعرف النوم. فهو يقضي الليل بتزييف وثائق شخصية، وشهادات تعميد وتصاريح مرور، بمعدل ثلاثين وثيقة في الساعة.

المتوفى

في العام 1975، طلب لال بيهاري شهادة ميلاد في بلدية أزامغارا، بولاية أوتار براديش الهندية.

أخطأ أحد الموظفين وسلّمه شهادة وفاة.

منذ ذلك الحين ينام لال بيهاري في الشارع، يأكل قمامة، وقف في صفوف طويلة جداً، نهاراً وليلاً، ومن مكتب إلى مكتب، ملأ استمارات، وقّع رسائل، طلب مساعدة من الكنائس والجمعيات التي تساعد اليائسين، وأدرك كم هو صعب حصولَ ميتٍ على عملٍ أو امرأة.

نصحه أحد المحامين بأن يشنق نفسه، لأنه من المحال تصحيح السجلات الرسمية، ولن يكون بإمكان لال بيهاري أن يُثبت أنه لا يتظاهر بأنه حي. كما أنه لا وجود لنقابة تدافع عنه.

عندئذ أسس هو نفسه جمعية المتوفين في الهند. فكانت أو نقابة للموتى في العالم.

أبي يذهب إلى الستاد

في إشبيلية، وخلال مباراة بكرة قدم، روى لي سيكستو مارتينيث:

- يوجد هنا مشجع متعصب يُحضر معه أباه دوماً.

- أجل - قلت - أب محب لكرة القدم، وابن محب لكرة القدم.

نزع سيكستو نظارته وصوب نظره إليّ:

- هذا الذي أحدثك عنه يُحضر أباه الميت.

ترك جفنيه ينزلان، وأضاف:

- كانت تلك رغبة الأب الأخيرة.

في كل يوم أحد، يجيء الابن حاملاً رماد صانع حياته ويُجلسه إلى جانبه على المدرجات. لقد طلب منه المتوفى ذلك:

- خذني لمشاهدة فريق بيتيس حبيب روحي.

- في البدء، كان الأب يجيء إلى الستاد في إناء زجاجي.

وذات مساء، منع حراس البوابات إدخال القارورة الزجاجية، فهي ممنوعة بسبب العنف في الملاعب.

منذ ذلك الحين صار الأب يأتي إلى الملعب في عبوة من الكرتون البلاستيكي.

آثار ضائعة

في اليوم الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر من كل عام، يسافر المكسيكيون الموتى لزيارة الأحياء.

في هذا اليوم المقدس - نهار وليل - من القصف المتواصل، يجتمع الأحياء والموتى، يأكلون ويشربون ويرقصون ويغنون ويتبادلون قصّ الحكايات.

ولكن كثير من الموتى يضلون الطريق، مهما كانت النواقيس

والقداديس التي تستدعيهم، ومهما بدا سهلاً اتباع الطريق الذي تشير به إليهم الأزهار.

وهؤلاء، الضائعون، يكونون قد غادروا منذ زمن بعيد، ويكونون قد مضوا بعيداً، يلاحقهم الجوع أو الرصاص، فماتوا بعيداً.

وهم الآن مجرد أرواح مسكينة تائهة، تجول دون وجهة بحثاً عن مسقط رأسها، كي تلتقي، ولو ليوم واحد، يوم واحد فقط، مع الأحبة الذين ينتظرونهم: مع أناسي، معشري.

ولكن يحدث أن يكون أناسهم قد بدّلوا عنوانهم وبدلوا كل شيء، وما كان لم يعد ما كان ولا حيث كان، ولا يُعرف من هو أي شخص أو من أين، أهو من هنا، أم من هناك أم من لا مكان.

غائب بلا إشهار

مكسيكو، يوم الموتى، عام 2012.

في مقبرة دولوريس لا يوجد متسع لدبوس. شعب بكامله اجتمع بانتظار موتاه.

ولكن المُنتَظر الأكبر، دييغو ريفيرا، وهو فنان رسام، يتخلف عن المجيء مرة أخرى.

يقولون إنه قال:

ـ لن آتي ولو كنت مجنوناً. لدي ثلاث أرامل مدفونات هنا بالذات، ولا أريد أن يفسدن عليّ موتي.

القربان

سألتُ ذات مرة فرناردو بينيتث، وكان عالماً خبيراً بالأحياء والأموات، ما السبب في أن المتوفين الذين يرجعون إلى المكسيك في الثاني من تشرين الأول/نوفمبر من كل عام، يكونون على الدوام، أو على الدوام تقريباً، من المتوفين الذكور ولا يكونون على الإطلاق، أو على الإطلاق تقريباً متوفيات.

فأجابني دون أن يجيبني بأن روى القصة الحزينة للمتوفاة خوانا.

لقد سمع فرناندو هذه التعاسة في سيوالتيبك، من فم شخص يدعى بافنوسيو، ترمل من خوانا وتزوج من أخرى، «فأنا لم أولد للعيش وحيداً».

وحلّ موعد عيد الموتى بينما كان بافنوسيو يعمل بعيداً، بعيداً جداً، فكلف امرأته الجديدة بأن تقيم مذبحاً صغيراً للمرحومة خوانا وأن تضع عليه قرباناً لها.

صنعت الزوجة الجديدة المذبح وكان القربان الذي وضعته عليه حجراً متأججاً كالجمر، هذا هو الطعام الفاخر الذي أرسله إليك زوجك بافنوسيو المعبود.

تلقت المتوفاة خوانا تلك النار بفمها ووصلت ولولاتها إلى أقصى أقاصي البُعد.

ـ وتصور ـ واصل بافنوسيو ـ. رجعتُ في عدو على الحصان، كي أُقر العدالة. لقد كنتُ على الدوام، ولا أزال رجلاً مسالماً، وعندما اعترفتْ لي هي نفسها بفعلتها الخبيثة، لم أستطع إلا أن أعاقبها ببضع جلدات بالسوط.

النجوم الأخرى

عندما يجيء يوم الموتى، تقوم بعض قرى المايا، مثل سومبانغو وساكاتيبيكيس بإطلاق أكبر طيارات ورقية في العالم وأكثرها بهرجة.

الطيارات الورقية تزرع السموات الثلاث عشرة بنجوم جديدة. إنها من عمل الجميع، الأطفال والأجداد، وفي الأعالي تتقاطع مع الموتى النازلين إلى الدنيا، حيث تنتظرهم جرعات خمر جيدة وأطعمة لذيذة.

وحين تهب الرياح قوية، تتلاعب حاملة الطيارات مع الأطفال المتعلقين بالخيط المربوط بها. لا يصرخ أي طفل. إنهم يطيرون وهم يغنون ويرفضون الانصياع للأصوات المنادية من أسفل التي تريد أن تُفسد عليهم النزهة.

ملوك المقبرة

إنريكي أنطونيو، المولود بين الضباب العالي الذي صعد من ميريدا، رأى أناساً كثيرين يأتون ليبقوا، بل إنه شهد حالة انبعاث: لقد غضب أحد الموتى، في أوج السهر على جثمانه، حين كان ذووه المحزونين يتناقشون بشأن أسعار المواكب الجنائزية، فنهض وقال:

- إذا كان الأمر على هذه الحال، فسوف أذهب ماشياً.

لا يروق لإنريكي أن يسموه دافن الموتى، ولا حفار القبور. إنه ملك المقبرة، مثل زميله فورتوناتو مارتينيث الذي يزرع موتى قرية أرينالس.

كل منهما أمضى سنوات طويلة في مملكته:

- أنا أعتني بموتاي وهم يعتنون بي - هذا ما يقوله كل منهما.
وفي صباح كل يوم، في وقت مبكر، يحملان الصلبان التي أوقعتها الريح أو الأمطار أو الشيخوخة، ويعيدان وضع تلك الصلبان في أمكنتها بلا خطأ. لأن غرس الصليب على الميت الخطأ سيكون خطيئة لا تغتفر.

الرغبة الأخيرة

في صباح اليوم الأخير من عام 1853، كان على سيرياكو كويتينيو أن يدفع الثمن، بعد أن كان مفوض شرطة مرهوب وذباح.

لقد كان مديناً بميتات كثيرة.

لم ترتعش يده قطّ، ولم يرتعش صوته عندما عبّر عن رغبته الأخيرة:

- خيط وإبرة.

وبكل هدوء، خاط بنطاله بقميصه، غرزة فغرزة، مثلما تتطلب تلك المناسبة المهمة.

تأرجح سيرياكو لسساعات طويلة وهو معلق على المشنقة، في أحد ميادين بوينس ايرس الرئيسية، كي يكون عبرة للمتمردين.

ولكن بنطاله لم يسقط عنه.

الموسيقى في الزناد

في سيارا، شمالي البرازيل، حيث الأراضي جافة، والناس قساة، هنالك من يولدون وهم موسومون بالموت.

فحين يقرر سادة الأرض والبشر القضاء على أشد الخطرين،

يكلفون بالمهمة قاطع طريق مُجرب، يكون قد راكم كمية من الضحايا على كاهله.

وينبهونه:

- سيكون الأمر صعباً جداً. لديه حماية جيدة من المتنفذين يدينون له بخدمات.

ويسألونه:

- أأنت مستعد لكل شيء؟ ألديك الشجاعة؟

فيرد قاطع الطريق:

- بشأن الشجاعة، لا أدري. ولكن لدي العادة.

ألوان

على امتداد ألف عام، بدلت مريم العذراء لونها أربع مرات.

في الحداد على ابنها المقتول، ارتدت عباءة سوداء.

بعد ذلك تحولت إلى الأزرق، ومن الأزرق إلى الذهبي.

صارت العذراء ترتدي الأبيض منذ العام 1854، حين كشف البابا بيو التاسع عقيدة الحَبل بلا دنس. فالأبيض هو لون نقاء المرأة التي كانت أماً للرب دون أن يلمس رجل يدها قطّ.

أجساد تغني

في العديد من غابات وأنهار الأمريكيتين، مازالت حية واحدة من العادات التي أرعبت، في زمن مضى، الغزاة الأوربيين: أجساد السكان الأصليين تقدم عُرياً ذا تلونات.

من الرأس حتى القدمين تبدو الأجساد موزايكاً ورموزاً مرسومة بالأحمر أو الأسود أو الأبيض أو الأزرق.

الهنود يقولون إن ذلك من صنع الآلهة، من أجل تسديد خطاهم وإضاءة طقوسهم.

الأجساد المطلية بالألوان تشكل لقاحاً واقياً للجمال في مواجهة الحزن.

الجسد خطيئة

في العام 1854، وبعد ست سنوات من الزواج، انتهى الكاتب الإنكليزي جون راسكين إلى الطلاق.

تعللت زوجته بأنه لم يقم قطّ بواجبه الزوجي كما يجب، وبرر هو ذلك بأنها هي نفسها تعاني من شذوذ مريع كالمسوخ.

راسكين الناقد الفني الأوسع مكانة واحتراماً في إنكلترا الفيكتورية.

كان قد رأى ما لا حصر له من النساء العاريات تصويراً أو رسماً أو نحتاً، لكنه لم يكن قد رأى ولو واحدة منهن بشعر عانتها، لا على أقمشة اللوحات ولا في مرمر المنحوتات، ولا في الفراش بأي حال.

حين اكتشف ذلك في ليلة زفافه، دمر اكتشاف الشعر بين الساقين زواجه. ذلك الشذوذ المسوخي الفظيع أمر غير محتشم ومخالف للطبيعة، لا يليق بسيدة حسنة التربية، وربما يكون عادياً لدى الزنجيات المتوحشات اللاتي يتجولن عاريات في الغابات، كما لو أن جسدهن كله وجه.

عائلة مقدسة

أب مُعَاقِب.

أم متفانية.

ابنة مذعنة.

زوجة بكماء.

مثلما هي مشيئة الله، فالتقاليد تُعلم والقانون يُجبر:

الابن مضروب من الأب

الذي كان يضربه الجد

الذي ضرب الجدة

المولودة لتنصاع،

لأن الأمس هو الوجهة إلى اليوم، وكل ما كان سيظل.

ولكن على جدار، في مكان ما، يخربش أحدهم:

أنا لا أريد مجرد البقاء حياً.

أريد أن أعيش.

بداية الشباب

لم يكن قد مضى وقت طويل على تدشيني أول بنطال طويل الساقين عندما انطلقت ماشياً ذات ليلة، في ساعات محظورة، وحيداً، لأجوب بارات مرفأ مونتيفيديو.

عند انعطافة أحد التقاطعات، بلغتني أصداء تأوهات وصفعات من شارع ياكاريه.

تنفست عميقاً، استجمعت الشجاعة وتقدمت. فرأيت. على ضوء أحد مصابيح الشارع، رأيت امرأة تتلقى ضربات، ذراعيها مفتوحين، وظهرها إلى الجدار؛ فاقتربت بخوف وقلت، أو أردت أن أقول:

- اسمع أيها السيد، هذا غير...

المعني أوقعني بلكمة.

رُميت أرضاً، وبينما راح الرجل يركلني على أضلاعي،

وأخذت هي، من كانت تتلقى الضربات، ضربي على رأسي بكعب حذائها، مثل من يدق مسامير.

لا أدري كم من الوقت بقيتُ إلى أن تعبا، فأوقفا العقاب وانصرفا، مضى هو قبلها، ثم انصاعت هي ولحقت به.

ظللتُ هناك، ملقى على الأرض، إلى أن رفعني أحدهم.

لقد تلقيت درساً.

لم أستطع فهمه قطّ.

اللذة امتياز ذكوري

ما هو ذلك التكور الصغير الذي يطل من بين سيقان النساء؟ ما نفعه؟

لم يجد العلم جواباً، إلى أن فرض اليقين أن البظر هو خطأ تشريحيّ أنثوي.

في العام 1857، أفتى العالم الإنكليزي ويليام أكتون:

- المرأة الشريفة لا تبحث عن اللذة في الجنس. ما تسعى إليه هو إمتاع زوجها ومنحه أبناء.

وكان قد تم التوصل آنذاك إلى إثبات أن رعشة اللذة الأنثوية مسألة متخيلة وليست ضرورية لتحقيق الأمومة المقدسة.

أتقياء فاضلون

الكهنة الذين نذروا أنفسهم للعفة، هم الخبراء الذين يُمْلُون معايير الحياة الجنسية.

في العام 1215، أفتى الكردينال روبرت ديك ارسون:

- الرجل التقي يستاء من الإحساس باللذة، لكنه يتحمل هذا الاستياء من أجل إنجاب أبناء أصحاء.

وكانت الكنيسة تهدد: سيولدون مصابين بالجذام أو الصرع الأبناء الذين يُحبل بهم في واحد من أيام الانقطاع الإجباري الثلاثمئة.

عقوبات

في العام 1953 أصدرت بلدية لشبونة الأمر رقم 035 69:

بعد التأكد من تزايد أفعال مخالفة للطبيعة ومضادة للأخلاق والعادات الحميدة آخذة بالحدوث في الأماكن العامة والحدائق، تقرر أن تفرض الشرطة وحراس الأحراج والغابات مراقبة دائمة على الأشخاص الذين يسعون للتواري في آجام نباتية كثيفة لممارسة أفعال تنتهك الأخلاق والعادات الحميدة، وتفرض عليهم الغرامات التالية:

أولاً- يد فوق يد: 2،50 إسكودو.

ثانياً- يد على ذاك: 15 إسكودو.

ثالثاً- ذاك في اليد: 30 إسكودو

رابعاً- ذاك في ذاك: 50 إسكودو

خامساً- ذاك وراء ذاك: 100 إسكودو

فقرة منفصلة: اللسان على ذاك، 150 إسكودو غرامة، مع سجن وتصوير.

قبلني كثيراً

أثبت علماء التقبيل أن القبلة العاطفية تجعل تسعاً وثلاثين عضلة في الوجه ومناطق أخرى من الجسد تعمل.

كما ثبت أيضاً أنه يمكن للقبلة أن تنقل عدوى الزكام، والجدري، والسّل وأوبئة أخرى.

وبفضل العلماء أصبحنا نعرف الآن أن يمكن للقبلة أن تسبب الإنهاك حتى للرياضيين الأولمبيين ويمكن لها أن تسبب المرض المؤكد لأشد النماذج البشرية سلامة وصحة.

ومع ذلك...

غير المنصاعة

حسب ما تقوله أقدم الأصوات، لم تكن حواء هي المرأة الأولى التي قدمها الرب لآدم.

كانت هناك واحدة أخرى قبلها. كان اسمها ليليث، ولم تكن سيئة بأي حال، ولكنها تعاني من عيب خطير: لم تكن لها أية مصلحة بالعيش في خدمة آدم.

تواريخ مطبخية

تشيشفيس أحد الشخصيات التي اختلقتها المخيلة الشعبية، في فرنسا، خلال العصور الوسطى.

كان هذا المسخ يتغذى بالتهام النساء اللاتي لا يخالفن أوامر أزواجهن أبداً.

وكانت ذلك هو الطبق الوحيد في قائمة طعامه.

لكن المذعنات كنّ قليلات جداً، على الرغم مما يقوله بعض المؤرخين.

لقد كنّ قليلات إلى حدّ أن تشيشفيس المسكين مات جوعاً.

مذنبات

أغلاونيكيه، أول امرأة فلكية، عاشت في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، اتهمت بالسحر والشعوذة لأنها كانت قادرة على تحديد موعد الكسوفات، وكانت الشكوك تحوم حولها بأنها هي من تقوم بإخفاء القمر.

بعد بضعة قرون من ذلك، أُخضعت جاكوبا فيليتشي للمحاكمة بباريس، في شهر آب/أغسطس من عام 1322. فقد كانت تعالج المرضى، وهذه مهارة محظورة على النساء وتنحصر ممارستها بالدكاترة الذين كانوا ذكوراً وعازبين.

الملعونة

كاتالينا دي لوس ريوس آي ليسبيرغير، الملقبة «كينترالا»، أجمل امرأة في تشيلي، اتُهمت بممارسة السحر، ودس السم لأبيها، وقتل عشاقها طعناً بسكين، وتعذيب خدمها.

ولكن أشد جرائمها فظاعة كان شيئاً آخر: لقد ولدت بشعر أحمر. خصل شعرها الطويل مصنوعة من لهيب جهنم، ونمش وجهها هو ماركة صناعة الشيطان.

ماتت عام 1665. ثرواتها الهائلة، مما ورثته من أراض وعبيد، أتاحت لها شراء الغفران، وأنقذتها من الموت على المحرقة التي كان قضاة محكمة التفتيش قد أعدوها لها.

قصة حب

Love story

الأوركيديا، ملكة الجمال في حدائق العالم، تستدعي الحب، والحب يهرع مستجيباً.

الحب يقسم أن نواياه شريفة

الحب يُقسم أن نواياه شريفة والأوركيديا تظن أن هذه هي نحلة أحلامها، ذبابة حياتها، فراشتها المشتهاة، فتتنهد بعمق لأنها ستتمكن أخيراً من تأسيس منزل وتنجب حشرات صغيرة جميلة مثل الماما.

لكن هذا الحلم الأبدي يستمر ثلاثين ثانية. العشيق يمل الرتابة الزوجية، ويكتشف أن هذه الأوركيدا لا تحتوي على رحيقه المفضل، فيحمل غبار الطلع ويهرب بحثاً عن أزهار أخرى، ومن زهرة إلى زهرة يطير، يدخل فيها ويهرب.

الأوركيدا خائبة الأمل لا تيأس.

تظل تنتظر.

تشارلز دارون، عاشق أزهار الأوركيدا، روى هذه القصة الحزينة، بعبارات علمية صارمة، بعد ثلاث سنوات من نشر كتابه حول أصل الأنواع.

قمل

في بنما، سمعت من يقول:

- إنهم قذرون. فيهم قمل. الهنود وسخون.

في أرخبيل سان بلاس، بحر من مرايا، جزر رمال بيضاء، تأكدت أن نعم، ولكن لا: لدى هنود كوناس قمل، ولكنهم يستحمون بكثرة وبحماسة حتى أنني تُوجت بينهم، في تلك الأيام، ملكاً على القذرين.

إلى الرأس، لا يسمحون للماء بالوصول. فالهنود يحافظون على القمل حياً في الرأس، كي ينتزعه الحبيب.

فحسب تقاليدهم، من يحبك عليه أن يثبت أنه يريد تخليصك من عذاب تلك الشياطين الدقيقة.

عناكب

في قرية سابانيتا، يسمونه عنكبوتي، لأنه يمضي في الشوارع منادياً على العناكب:

- عناكب ساخنة، للعجائز اللاتي بلا أسنان!

- عناكب لذيذة، للفتيات الحسناوات!

لكن العناكب التي يبيعها ذلك الصغير لم تكن لها قوائم

مغطاة بالوبر، ولا تمسك أحداً في شِباكها ولا تسمم أحداً، وليست لديها العادة الذميمة بالالتهام ذكرها بعد ممارسة الحب.

لا أحد يعرف لماذا كانت تُطلق هذه التسمية على تلك الحلوى التي تحضّرها جدة هوغو تشافيس من عصير البابايا، كي يساهم حفيدها بقسط من الميزانية العائلية.

هذه الرقبة

في العام 1967 أمضيت فترة في غواتيمالا، بينما كانت سرايا الموت، وهي سرايا عسكريين بلا زي عسكري، تزرع الرعب في البلاد. إنها الحرب القذرة: مارسها الجيش الأمريكي في فيتنام، وكان يُعلمها لعسكريي غواتيمالا، مختبره الأول في أميركا اللاتينية.

في الأدغال تعرفت على رجال حرب العصابات، وهؤلاء هم الأعداء اللدودون لصانعي الخوف أولئك.

وصلتُ إليهم، عبر الجبال، بسيارة تقودها امرأة تتمكن بمكر من تجنب كل نقاط المراقبة. أنا لم أرها، ولم أعرف صوتها. كانت مغطاة من رأسها حتى قدميها، ولم تتفوه بكلمة واحدة خلال رحلة من ثلاث ساعات، إلى أن أومأت بحركة من يدها، بصمت، وفتحت باب السيارة الخلفي وأشارت إلى الدرب

السري الذي يجب عليّ التوغل عبره في الجبل.

بعد سنوات من ذلك، عرفت أنها تدعى روخيليا كروث، وأنها تتعاون من مقاتلي حرب العصابات وأنها كانت في السادسة والعشرين من عمرها حين عُثر عليها تحت جسر، بعد تعرضها للاغتصاب ألف مرة والبتر على يد الكولونيل مكسيمو سيبيدا وجنوده كلهم.

أنا لم أرَ سوى رقبتها.

ومازلتُ أراها.

هاتان العينان

كان سيسر بافيس قد كتب:

سيأتي الموت وتكون له عيناك.

التقى بها في فندق بتورين، ذات ليلة من صيف عام 1950.

ومن عينيها، عرفها.

ذلك الصوت اللجوج

في كل يوم، الساعة الثانية مساء بالضبط، تدوي صفارة المصنع في تلك القرية من قرى أليكانتي. وفي الساعة الثانية

بالضبط، يقف خواكين مانريسا عند الناصية وينتظر.

عندئذ تظهر وهي تحرك دواسة الدراجة، وجهها في مواجهة الريح، وشعرها مفلت، تلك المرأة الوحيدة بين العاملات الكثيرات اللاتي يخرجن في الموعد نفسه من العمل. لكن خواكين لا يرى الأخريات.

لم يتخلف قطّ عن ذلك الموعد المضروب مع لا أحد، وهي لم توقف دراجتها قطّ.

لم يعرف خواكين ما اسمها.

بعد سنوات طويلة من ذلك، كان يمشي في شوارع أوبورتو، بعيداً جداً عن قريته بأليكانتي، كان في خريطة أخرى، لغة أخرى، بلاد أخرى، حين عاد يسمع صفارة المصنع التي لا يمكن له أن يخطئ فيها، ذلك الزعيق القبيح الذي كان يعلن قبل اثنتين وثلاثين سنة عن اللحظة العظيمة في كل يوم.

فتوقف عند الناصية، وانتظر.

لم يمر أحد.

لم يكن هناك أحد.

لقد أخطأت صفارة المصنع.

كان اليوم هو الأول من أيار/مايو.

مشاكل زوجية

الشمس والقمر كانا يعيشان معاً، وكانت أمورهما على ما يرام، إلى أن فاجأت الشمسُ القمرَ وهو يُقبِّل نجمة الصبح بوله شديد.

فضربته الشمس. وحسب أبناء شعب المابوتشي، مازالت ندوب العقاب ظاهرة للعيان على جسد القمر؛ ومن دموعه الفضية ولد فن صياغة الفضة لدى السكان الأصليين.

ولم يعودا قطّ منذئذ إلى العيش معاً. فحين تطلع الشمس، يغيب القمر. وعندما يظهر القمر تختبئ الشمس.

تداخلات عائلية

روبرتو بوتون، طبيب ريفي، جمع أصواتاً كثيرة في أرياف أروغواي؛

وهذا كان وداع الحياة من شخص يدعى كانوتو، وهو حطاب وراعٍ وفلاح:

- انظر يا دكتور. حدث أنني تزوجتُ من أرملة، وكانت لها ابنة كبيرة. جاء أبي ووقع في غرام تلك الابنة وتزوج منها، وهكذا صار أبي صهري وصارت ابنة زوجتي صارت خالتي زوجة أبي.

أنجبنا أنا وزوجي ابناً، فصار سلف أبي وخاله. فيما بعد أنجبت ابنتي ابناً، فصار أخي وحفيدي أيضاً.

هل تتابعني يا دكتور؟ هذا كله معقد بعض الشيء، أعترفُ بذلك، وباختصار صرت أنا أيضاً زوجاً وحفيداً لزوجتى. وهكذا كانت الحال إلى أن انتبهت في أحد الأيام إلى أنني جدّ نفسي!

هل تلاحظ؟ إنه وضع لا يطاق. أروي لك هذا كله لأنك دكتور وحكيم جداً.

كشف

رن الهاتف.

بدت لي اللكنة معروفة، لكنني لم أتعرف على الصوت.

وقت طويل مضى دون أية أخبار. لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك الصديق الذي ظلَّ في مونتيفيديو عند خروجي إلى المنفى.

- تعال - قلت له، وأعطيته مواعيد القطار الذي يذرع الساحل الكتلاني حتى كاليلا دي لا كوستا.

وبينما أنا متوجه إلى المحطة، رحت أتذكر بعض المشاوير المشتركة.

لم يكن صديقي قد تغيير كثيراً. الضحكة الصريحة هي نفسها مثلما كانت، وهو أيضاً.

مررنا من بعض شوارع القرية.

لم يقل شيئاً، إلى أن علّق من بين أسنانه:

- يا للقبح!

وبصمت واصلنا المشي.

تلك كانت المرة الأول التي أسمع فيها ذلك. وربما كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها أيضاً إلى أنه قول صحيح.

آلمني ذلك.

ولأنه آلمني، اكتشفت أنني أحب القرية التي كنت أعيش فيها.

سائق التكسي

منذ عدد لا بأس به من السنوات، كنت في استوكهولم أول مرة.

وركبتُ أول مرة سيارة أجرة سويدية.

نزل السائق من السيارة مثل من يترجل من عربة مهيبة تجرها خيول، فتح لي الباب، تقاضى مني الأجر بكل تهذيب وأعاد لي الفكة الزائدة عن الأجر وودعني بانحناءة احترام خفيفة.

كان الجو بارداً جداً، كما هو معهود، وأعترف أنه بدا لي من

غير العدل القيام بكل تلك التضحية غير المجدية.

وفي الليل، علّقتُ حول الأمر مع أصدقائي.

أليس هنالك حكومة اشتراكية في السويد؟ ما هذه العبودية التي ترجع إلى أزمنة السادة والخدم؟

الأصدقاء صمتوا.

بعد ذلك، بصبر مقدس، شرحوا لي أن سائق التكسي قد تقيّد بقانون اشتراكي، صدر لحماية العاملين.

فمن أجل تقاضي أجر كل مشوار، يجب على السائق أن يخرج من السيارة. وهكذا، دون أن ينتبه، يمارس رياضة. فتلك الخطوات القليلة في الشارع تساعد الدورة الدموية، وتحرك العضلات، وتمرن الرئتين.

لقد تناقص أمراض مهنة سائقي التكسي بصورة جذرية منذ سريان مفعول هذا القانون.

الوليدة

في اليوم الأخير من شهر أبريل 2013، ولدتْ غالولو غواغنيني في كاراكاس.

أبوها رودولفو أوضح:

- لقد جاءت كي تعلمنا جميعنا من جديد.

أفروديت

قبل وقت قصير كانت كاتالينا وفيليبه قد اكتشفا البحر، ولم يكن هنالك من هو قادر على جعلهما يخرجان من الماء. كانا يمضيان أيامهما بالقفز فوق الأمواج، بينما تقبع على رمل الشاطئ، منسية، القوالب البلاستيكية والرفوش الصغيرة والدلاء.

في إحدى الليالي رويت لهما:

ـ كان يا ما كان، كانت هناك امرأة تدعى أفروديت. ولدتْ من زبد البحر. ويبدو لي أنكما مثلها أيضاً.

في صباح اليوم التالي، سمعتُ صراخاً، وكان يأتي من جهة الأمواج.

كانا هما نفسيهما، يصيحان للزبد:

ـ ماما! ماما!

ليلاريو

جمل قالتها الآنسة ليلا روديغيث، حين كان عمرها ما بين خمس وسبع سنوات:

ـ لماذا لا يظهر الفضائيون في السماء؟

- هل يكون عند الطفل ألعاب وهو في بطن أمه؟

- إنني في خطر! هناك نملتان تنظران إليّ!

- أفضل حرف بين الحروف هو U لأنه يضحك.

- لماذا أشعلتِ النور يا ماما؟ لماذا أطفأتِ الظلمة؟

- أريد أن أعض أذني لكنني لا أستطيع!

- أتدري أمراً؟ أنا أريد دوماً أن أكون حيث لا أكون.

- عندما أكبر، لن أنجب أبناء لأنهم يمزقون الكرات.

- هل أريد هذه البسكويتات للغد؟ طبعاً أريدها. فالمستقبل جائع.

- سانتا كلوز موجود لأنني أريده أن يكون موجوداً.

المخترع

لم يكن قد مضى وقت طويل على بدء مانويل روسالدو حياته المدرسية، حين اخترع حقنته.

تحقن في المؤخرة، لكنها تؤثر بمفعولها في الرأس. حقنة واحدة

أطفال يُسمون الأشياء

إنها أصوات أطفال يتعلمون تسمية أشياء في مدارس كولومبية بمقاطعة أنتيوكيا.

الأصوات جمعها خابيير نارانخو ومعلمون آخرون:

فم: صنعه الرب من أجل المضغ، لكنه يُستخدم للكلام.

مطر: إنه يسوع، عندما يبول.

شيطان: إنه أكبر متشدق ثرثار.

البُعد: هو فراق أحدهم لأحدهم.

روح: هو الجسد الآخر، يعيش في الموت.

حرب: أناس يقتتلون من أجل قطعة أرض أو سلام.

كنيسة: مكان يجتمع فيه الناس ليغفروا للرب.

قمر: هو من يقدم لنا الليل.

الكون: بيت النجوم.

هناك في طفولتي

كانت ليلة الخامس إلى السادس من كانون الثاني/يناير.

تركتُ رسالة في حذائي، وقبل أن أنام وضعت حفنات من

العشب وبضع كؤوس ماء من أجل الجِمال التي ستصل، منهوكة، من شرق العالم.

طوال تلك الليلة لم أغمض عينيّ. وكنت أسمع بين حين وآخر وقع خطوات الجمال المحملة بحزم ضخمة، وأميز عليها هيئة ملوك المجوس الثلاثة.

وما إن طلعت الشمس حتى قفزتُ واندفعت راكضاً للبحث عن الألعاب التي أحضرها لي ملوك المجوس.

بعد شهرين من ذلك، دخلت المدرسة أول مرة.

وفي الفسحة بين الدروس، تلطف أحد زملائي الصغار في الصف بإخباري:

- يا لك من أبله. أمازلت لا تعرف أن ملوك المجوس هم الآباء؟

وجدت صعوبة في إبداء ردّ فعل، فقد أعماني الغضب، حشرته إلى الجدار وضربته إلى أن بكى.

المديرة طردتني.

عندما تم العفو عني، واستطعتُ الرجوع، لم يعد هنالك من يتكلم في ذلك الموضوع الخطير.

الموهبة

اسمه راما ويعمل في تينالي، وهذه قرية جنوبي الهند.

كان صغيراً جداً عندما اكتشف موهبته.

حدث ذلك في معبد الربة كالي.

بينما هو منحن عند قدمي الربة، أنشد الطفل راما نشيد توقيرها، لكنه لم يستطع أن يتفادى نوبة ضحك.

لم يرق ضحكه للربة بأي حال.

إن لها ألف وجه، وبأفواهها الألف طلبت منه تفسيراً لضحكه.

فاعترف الطفل:

- أنا لدي أنف واحد فقط. ويبدو لي نَفّ أنفي أمراً شاقاً كلما أصبتُ بالزكام. كيف تتدبرين أنت الأمر لنفِّ أنوفك الألف؟

حكمت عليه الربة بالضحك المؤبد. ومنه صار مصدر عيشه.

ذاك السؤال

عائلة محفوظ كانت تتعرض للحصار والتضيّق عليها من دكتاتورية الأوروغواي العسكرية، وقد عانت الأسرة السجن والتعذيب والإذلال، وجُردت من كل ما تملكه.

ذات صباح، كان الأطفال يلعبون بعربة عتيقة حين دوى صوت رصاصة. كانوا بعيدين، لكن الطلقة اجتازت حقول تاكواريمبو وعندئذ عرفوا، من يدري كيف، من يدري لماذا، أن الفرقعة آتية من فراش الخالة مارتا، المحبوبة لديهم أكثر من الجميع.

منذ ذلك الصباح، صار نولو، أصغر أفراد العائلة، يسأل ويسأل:

- لماذا نولد، ما دام علينا أن نموت؟

حاول خورخي، أخوه الأكبر، أن يساعده.

بحث عن جواب.

راحت السنون تمر، مثلما تمر الأشجار قبالة نافذة القطار؛ وخورخي مازال يبحث عن الجواب.

المطر

بين كل موسيقا الدنيا والسماء، بين كل تلك التي أسمعها من أعلى ومن أسفل، أختارُ كونشيرتو المطر وحسب.

أسمعه كما في صلاة، في كل مرة يُسمع وقعه في منور بيتي.

الغيوم

في الليل، حين لا يراها أحد، تنزل الغيوم إلى النهر.

وبينما هي تنحني فوق النهر، تغرف منه الماء الذي ستُمطره بعد ذلك على الأرض.

حين يأتي الصباح، يكون بإمكان أي شخص أن يرى مرور الغيوم الساقطة.

أما هي فتنساق فوق الماء، كزوارق قطنية بطيئة، ناظرة إلى السماء

النهر غريب الأطوار

كانوا أطفالاً آتين من الأراضي الداخلية، الداخلية العميقة جداً، ولم يكونوا قد وصلوا من قبل إلى شاطئ بريابوليس، ولا إلى أي شاطئ آخر، ولم يروا البحر من قبل قطّ.

وباختصار، كانوا يتجرؤون على تبليل أقدامهم، ولكن أياً منهم لم يحاول مواجهة الأمواج.

من أجل التغلب على الخوف، قام أحد الأطفال، أكثرهم دراية، بشرح ما هو البحر:

ـ إنه نهر له ضفة واحدة.

دروب النار

في قِدمِ أقدم ما هو قديم، لم تكن للأزهار بتلات، ولم يكن في سهوبٍ البامبا رعاة غاوتشو، وإنما ديناصورات.

بعد زمن طويل جاءت النار.

ومنذ ذلك الحين، صارت النار تنقذنا من الظلام ومن البرد. وبينما هي تكمل مهماتها الدنيوية، ترسل الدخان باتجاه السماء، نحو منزل الألوهيات.

وحسب ما رووه لي في ميتواكان، الدخان هو غذاء الآلهة.

أم أن الآلهة يدخنون؟

القمر

القمر يموت لهفة لزيارة الأرض.

بعد كثير من التردد، سمح لنفسه بالسقوط.

لقد جاء للحظة وحسب، لكنه ظل عالقاً بين أغصان شجرة عندما بدأ رحلة رجوعه إلى السماء.

أحس القمر أنه لن يتحرر أبداً من سجن الأغصان ذاك، وشعر بالوحدة إلى حد فظيع، لكن الحظ حالفه بظهور ذئب من أعماق الغابة. أمضى الذئب الليل كله يلعب مع القمرة (القمر

مؤنث بالاسبانية)، يداعبها ببوزه، يكركرها من بطنها الأبيض ويروي لها نكاتاً ليست بذيئة تماماً.

قبيل الفجر بقليل، ساعدها الذئب على التحرر من الأغصان وسافرت القمرة نحو الأعالي.

لكنها لم تذهب وحيدة: لقد سرقت ظل الذئب، كي لا تنسى أبداً تلك الليلة المتقاسمة.

ولهذا يعوي الذئب.

إنه يتوسل أن تعيد له قمر ظله المسروق.

بينما قمر تتظاهر بأنها صماء.

البحر

هيلينا تجلس منذ ساعات أو منذ سنين قبالة البحر الذي ينفتح عند قدميها ويهاجم عينيها ورئتيها.

الذهاب يحزنها.

وكي لا تذهب أبداً، ذهبتْ، لكنها ركّبت عجلات صغيرة للبحر وأخذته معها. كما لو أنه ظلها، لأن البحر مصنوع، مثلها، من شمس وملح.

حكاؤو الحكايات

كان كارلوس بونابيتا يقول لي دوماً:

ـ إذا كان صحيحاً ذلك القول الشائع بأن الطريق يصنعه المشي، فأنت يجب أن تكون وزيراً للأشغال العامة.

يروق لقدميَّ أن تُتركا على سجيتهما للذهاب إلى شاطئ مونتيفيديو، إلى ضفة نهر لابلاتا. في العام 1656، كتب أنطونيو دي ليون بينيلو في مدريد بأن هذا النهر هو أحد أنهار جنة عدن الأربعة. أظن أنه قد بالغ قليلاً، فالحقيقة لا بد أن تقال، على الرغم من أن مياهه، في طفولتي، أو في ذاكرتي على الأقل، كانت مياهاً شفافة.

مرت السنون، ولم تعد شفافة مياه هذا النهر العريض كبحر، ولكنني مازلتُ أمشي على ضفافه بينما تمشي فيَّ، مشاء يمشي، الأرض التي فيها ولدتُ.

أمشي وفي أعماقي تمشي الكلمات كذلك، بحثاً عن كلمات أخرى، من أجل رواية القصص التي تريد هي نفسها أن ترويها.

الكلمات تسافر بلا تسرع، مثل الأرواح المهاجرة التي تهيم على وجوهها عبر العالم، ومثل بعض النجوم العابرة التي تُسلم نفسها للسقوط أحياناً، ببطء شديد، في سماوات الجنوب.

الكلمات تمشي نابضة. وفي هذه الأيام، بمحض الصدفة، وجدت أن كلمتي مشي وقلب باللغة التركية لهما الجذر نفسه (yürek ,yürümek).

منذ عدة سنوات، في أزمنة منفاي على الساحل الكتلاني، سمعت تعليقاً مشجعاً من طفلة، في الثامنة أو التاسعة من عمرها. كان اسمها، إن لم تخني الذاكرة، سوليداد.

كنت أتناول بضعة كؤوس مع أبيها، وهو منفي أيضاً، حين استدعتني جانباً وسألتني:

- وأنت ماذا تعمل؟

- و... أنا... أكتب.

- تكتب كتباً؟

- آ آ... نعم.

- أنا لا أحب الكتب - أصدرتْ حكمها.

ولأنها كانت تحاصرني محشوراً عند الحبال، وجهت إليَّ الضربة:

- الكتب صامتة، وأنا أحب الأغنيات، لأن الأغنيات تطير.

منذ لقائي مع ذلك الملاك الرباني، حاولت الغناء. لم أستطع ذلك قطّ، ولا حتى في الحمَّام. ففي كل مرة أغني، يصرخ الجيران طالبين أن يتوقف هذا الكلب عن النباح.

لست أعرف خورخي بينتوثيّا. وما أعنيه، بكلمة أدق، أنني لا أعرفه شخصياً، ولكن كتبي صديقة له، ومن خلالها، أنا كذلك.

عندما نُشر كتاب «مرايا»، قرر خورخي أن هذا الكتاب المجهول في بنما يستحق أن يجري تداوله من يد ليد.

لم يكن لديه الكثير من الأموال المدخرة، ولكنه في فورة جنون خصص ذلك المال كله لشراء نسخ من «مرايا»، وألقى بها للتداول في المقاهي وفي المتاجر وصالونات الحلاقة وفي الأكشاك، وفي كل مكان، مع تنبيه كتبه بنفسه:

هذا الكتاب المجاني كتابٌ رحالة. اقرأه حضرتك وأعطه لشخص آخر.

وهذا ما يحدث.

***

لم يحالفني الحظ في التعرف على شهرزاد.

لم أتعلم فن القصّ في قصور بغداد.

كانت جامعاتي هي مقاهي مونتيفيديو القديمة.

الحكاؤون المجهولون علموني ما أعرفه.

في القليل من التعليم الرسمي الذي حصلت عليه، لأنني لم أتجاوز الصف الأول من المدرسة الثانوية، كنت دارس تاريخ سيء جداً. ولكنني اكتشفت في المقاهي أنه يمكن للماضي أن

يكون حاضراً، وأنه يمك للذاكرة أن تُروى بطريقة لا تعود معها أمساً كي تتحول إلى الآن.

معلميَّ هم الكذابون المعتبرون الذين كانوا يجتمعون في المقاهي ليجدوا الزمن الضائع.

في حلقات الأصدقاء، حيث اعتدت أن أدس نفسي متسللاً، سمعت إحدى أفضل القصص التي تلقيتها في حياتي. كانت قد حدثت في بدايات القرن العشرين، في أزمنة حرب الفرسان الرعاة في مروج بلادي، لكن الراوي كان يرويها بطريقة مشوقة جداً يتوصل بها إلى جعلنا جميعاً نكون حيث يقول إنه قد كان.

وكان قد جاب، بعد إحدى المعارك، الميدان المزروع أمواتاً.

وبين الموتى كان هنالك فتى باهر الجمال، كان ملاكاً، أو أنه يبدو كذلك على الأقل.

كانت على جبينه شريطة بيضاء، حمراء بالدم.

ومكتوب على تلك العصابة: من أجل الوطن ومن أجلها.

كانت الرصاصة قد دخلت في كلمة أجلها.

***

أحد معلميّ في فن القصّ كان يدعى روليندو مارتينث.

أظن أنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة.

حين تعرفت عليه، كان يمضي قريباً من المئة عام، ويقول:

ـ لا عمر لي. أنا لا أعدّ سنوات ولا أستخدم ساعة.

كان يستذكر أصدقاءه من أزمنة بعيدة بمحبة وحنان، ولكن دون أن يهدي إليهم شيئاً:

ـ أجل، هذا كان طيباً. ولكن ليس أي شيء آخر أكثر من طيب.

وللحديث عن الحرب، يبدأ بالتوضيح:

ـ أنا لستُ تمساحاً حياً من أولئك الذين يمضون برؤوس مقلوبة؛ لكنني أرى ذلك بوضوح.

الصور ظلت راسخة لديه بالنار، منذ طفولته النائية، وكان لا يزال يعيشها.

بعض الفرسان مروا، كأنهم الريح، أمام عينيه وهو طفل. كان أحدهم مذبوحاً وهو مازال يراه، الجرح من الأذن إلى الأذن الأخرى، ودفقة الدم التي تطفر دون توقف:

ـ كان ذلك التعيس قد فقد حصانه ويمضي بيدين متخبطتين، يمشي متعثراً، دون أن يدري أنه ميت.

***

كتبت «كرة القدم في الشمس والظل» من أجل الحديث إلى الوثنيين. أردت أن أساعدة المتعصبين للقراءة على التخلص من خوفهم من كرة القدم، وأن يتخلص متعصبو كرة القدم من

خوفهم من الكتب. ولم أتخيل قطّ ما هو أكثر من ذلك.

ولكن هذا الكتاب، حسب فيكتور كينتانا الذي كان نائباً برلمانيا فيدرالياً في المكسيك، قد أنقذ حياته. ففي منتصف العام 1997، جرى اختطافه على يد قتلة محترفين، تم التعاقد معهم لمعاقبته على تشهيره بفضحه صفقات قذرة.

كانوا قد قيدوه منبطحاً على الأرض، وكانوا يقتلونه ركلاً حين توقف القتلة فجأة في استراحة أخيرة، قبل إطلاق الرصاصة الأخيرة عليه، ودخلوا في جدال حول كرة القدم. عندئذ أقدم فيكتور، وهو أقرب للموت منه إلى الحياة، على دسّ نفسه في النقاش. وراح يروي قصصاً من هذا الكتاب، مقايضاً كل قصة خارجة من تلك الصفحات بدقيقة من الحياة، مثلما قايضت شهرزاد قصة مقابل كل ليلة من الألف ليلة وليلة من الحياة.

وراحت الساعات والقصص تمضي.

وأخيراً تركه القتلة مقيداً هناك ومضروباً بشدة، لكنه حي.

قالوا له:

ـ لقد استلطفناك، وانصرفوا برصاصهم إلى مكان آخر.

***

في «أفواه الزمن»، رويتُ قصة وقعت عام 1967 في ملعب كرة القدم الرئيسي في كولومبيا.

لم يكن هناك متسع لدبوس، كان الستاد يغلي. إنه تحديد البطولة بين الفريقين المسيطرين في بوغوتا: فريق ميوناريوس وفريق سانتافيه.

وقع عمر ديفاني، هداف سانتافيه في منطقة الجزاء، في اللحظة الأخيرة من مباراة الكلاسيكو السوب تلك؛ وصفَّر الحكم معلناً ضربة جزاء.

ولكن ديفاني كان قد تعثر: لم دفعه أو يضربه أحد، ولا حتى لمساً. لقد أخطأ الحكم، وليس باستطاعته التراجع أمام الحشود المزمجرة التي تملأ الستاد.

عندئذ نفذ ديفاني ضربة الجزاء تلك التي لا وجود لها. نفذها بكل جدِّية، مطلقاً الكرة بعيداً وبعيداً جداً عن مرمى الخصم.

فعل الشجاعة هذا حدد دماره، لكنه منحه الحق بالتعرف على نفسه كل صباح قبالة المرآة.

بعد بضع سنوات من ذلك، تلقيت رسالة من شخص لا أعرفه، يدعى أليخاندرو امورين. كان ديفاني قد صار آنذاك بعيداً عن كرة القدم، لديه حانة في مكان ما على البحر الكاريبي، حين سأله المدعو أليخاندرو عن ذلك الموضوع. في البدء قال ديفاني إنه لا يتذكر؛ ثم قال بعد ذلك إن الأمر ممكن، فمن يدري، ربما يكون قد نفذ ضربة الجزاء تلك بصورة سيئة، خرجت معي

هكذا، أسأت الركل، كان الأمر غير مقصود، إنها أمور كرة القدم...

كما لو أنه يعتذر لأنه كان نزيهاً جداً.

***

قصة أخرى من «أفواه الزمن». في يوم من أيام شهر تشرين الأول/أكتوبر من كل عام، يرن الهاتف في بيت ميرتا كولانجيلو:

ـ مرحبا ميرتا. أنا خورخي بيريث. أظنك تتصورين لماذا اتصل بك. في مثل هذا اليوم، قبل ستة عشر عاماً وجدت تلك القارورة. إنني أتصل بك، كالعادة، للاحتفال بالمناسبة.

كان خورخي قد فقد وظيفته ورغبته في العيش، وكان يمضي ماشياً تعاسته بين صخور ميناء روساليس، حين وجد واحدة من مراكب الأسطول التي يلقي بها تلاميذ ميرتا، كل عام، إلى البحر. في داخل كل قارورة هنالك رسالة.

في القارورة التي وجدها خورخي، تقول الرسالة المبللة، لكنها لا تزال مقروءة:

ـ اسمي مارتين. عمري ثمانية أعوام. أبحث عن صديق عبر دروب الماء.

قرأ خورخي تلك الرسالة فأعادت إليه الحياة.

***

يُفتتح كتابي «أيام وليالي الحب والحرب» بجملة لكارل ماركس، جملة نالت إعجابي على الدوام لما تشع به من تفاؤل:

في التاريخ، كما في الطبيعة، التعفن هو مختبر الحياة.

عند ترجمة الكتاب إلى الألمانية، سألني المترجم، وهو يعرف أعمال ماركس من الألف إلى الياء، من أين استخرجتُ هذه الجملة، لأنه لا يتذكرها بأي حال ولم يجدها في أي كتاب.

لا بأس من التوضيح أنني أحد قلة من الكائنات الحية ذات أربع مآثر: فقد قرأت الكتاب المقدس كاملاً، وقرأت رأس المال كاملاً، واجتزت مدينة لوس انجلوس من أقصاها إلى أقصاها ماشياً؛ واجتزت ماشياً كذلك مدينة مكسيكو. كنت أظن أن الجملة من رأس المال. بحثت عنها أيضاً، لكنني لم أجدها. كنت واثقاً من أن ذاكرتي لم تخن هذه العبارة المتقنة من الفكر الديالكتيكي للملتحي الألماني العظيم، ورددت على المترجم:

ـ الجملة لماركس، لكنه نسي أن يكتبها.

***

في العام 1970 قدمتُ كتابي «شرايين أمريكا اللاتينية المفتوحة» لمسابقة كاسا دي لاس أميركاس، في كوبا. وقد خسرت. فالكتاب حسب رأي لجنة التحكيم، لم يكن جدياً. في عام 1970، كان اليسار ما يزال يحدد الجدية على أنها كل ما يثير الضجر.

لقد نُشر كتاب «الشرايين المفتوحة» في ما بعد، وحالفه الحظ بأن يكون محل إطراء كبير من الدكتاتوريات العسكرية التي حظرته. الحقيقة أن سمعة الكتاب جاءت من هناك، لأنه لم يكن قد بيع شيء من نسخه حتى ذلك الحين، ولم تكن الأسر تشتريه.

ونظراً للنجاح الذي لقيه في الأوساط العسكرية، بدأ تداول الكتاب يجري بصورة محظوظة أكثر فأكثر. اللهم إلا في بلادي، الأورغواي، حيث دخل بكل حرية إلى السجون العسكرية خلال الشهور الستة الأولى من عمر الدكتاتورية. أمر غريب، ففي تلك السنوات، سنوات الخطة كوندور، حيث كانت الدكتاتوريات تفرخ بملامح متشابهة جداً ـ متطابقة تقريباً ـ في بلدان مختلفة من أميركا اللاتينية، وكانت تُمنع الأشياء نفسها أيضاً.

رقباء الأروغواي، عند رؤيتهم العنوان، ظنوا أنهم أمام رسالة بحث في التشريح، وكتب الطب لم تكن ممنوعة.

الخطأ لم يدم إلا قليلاً.

***

خميس كانتيرو، أروغوائي مثلما أنا أروغوائي، ولاعب كرة قدم مثلما رغبتُ أنا أن أكون، كتب لي رسالة في العام 2009.

لم أكن أعرفه.

قال لي إن لديه شيئاً يريد أن يعطيني إياه.

وقد أعطاني إياه.

طبعة قديمة من شرايين أمريكا.

نقيب من جيش السلفادور كان قد أعطاه إياه، منذ عدد من السنوات.

وكان الكتاب قد سافر حول نصف العالم، مرافقاً خميس وجولاته الكروية.

ـ لقد بحث عنك. كان ينتظرك ـ قال لي حين سلمني الكتاب.

كان الكتاب مُخترقاً برصاصة، مصاباً بجرح مميت: ثُقب في الغلاف الأمامي، وثقب آخر في الغلاف الخلفي.

النقيب وجد الكتاب في جعبة رجل عصابات ميت بين قتلى كثيرين في معركة تشالاتيانغو، أواخر العام 1984.

لم يكن في الجعبة أي شيء آخر.

النقيب لم يعرف قط لماذا أخذ الكتاب، ولا لماذا احتفظ به. ولم يستطع خميس كذلك أن يفسر، ولا أن يوضح لنفسه، لماذا حمله معه طوال ربع قرن، من بلد إلى آخر.

ما جرى أنه على المدى الطويل، بعد سنوات طويلة من التجوال، وصل الكتاب إلى يدي.

وهو بين يدي الآن.

إنه الشيء الوحيد المتبقي من ذلك الشاب الذي بلا اسم.

هذا الكتاب الذي أعدم رمياً بالرصاص هو جسده.

***

في كتاب مرايا رويتُ قصصاً يعرفها قلة أو أنها مجهولة تماماً.

إحدى تلك القصص حدثت في إسبانيا، عام 1942. انقلاب فرانثيسكو فرانكو المسمى الانتفاضة الوطنية، لم يكن أكثر من انقلاب على الدولة، قضى على الجمهورية الإسبانية.

الدكتاتورية المنتصرة أعلنت أن سجينة، هي ماتيلدي لاندا، ستعلن ندمها وتتبرأ علناً من أفكارها الشيطانية، وستتلقى في السجن سرّ التعميد المقدس.

ما كان يمكن للاحتفال الديني أن يبدأ بلا المدعوة الرئيسية. لكن ماتيلدي قد اختفت.

لقد ألقت بنفسها من السطح وارتطم الجسد، كقنبلة، بفناء السجن.

لم يتوقف الاحتفال الاستعراضي. قام الأسقف بتعميد ذلك الجسد المهشم.

كان كتاب مرايا يُطبع في المطبعة حين تلقيت رسالة من المدققة التي تعمل في دار النشر، وكانت قد أنهت عملها كصيادة أخطاء.

أرادت أن تعرف من أين استخرجتُ تلك المعلومات. فجميع المعطيات صحيحة، ولكنها هي نفسها تعرفها من الحكايات العائلية.

فماتيلدي لاندا هي عمتها.

***

كان عمر حفيدتي كاتلينا عشر سنوات. وكنا نتمشى في أحد شوارع بوينيس آيريس حين اقترب أحدهم وطلب مني توقيع أحد كتبي، لا أذكر أي كتاب منها.

ووصلنا المشي، كلانا صامت، ومتعانقين، إلى أن حركت كاتلينا رأسها وصاغت هذا التعليق المشجع.

- لا أعرف لماذا كل هذا الاهتمام بك، إذا كنتُ أنا لا أقرأك.

***

منذ بعض الوقت كنتُ في سالتا، شمالي الأرجنتين، أقرأ قصصاً للأطفال.

عند الانتهاء، طلبت المعلمة منهم أن يكتبوا لي رسائل تعلق على القراءة.

إحدى الرسائل تنصح:

- واصل الكتابة وسوف تتحسن.

***

هذه القصة تُقرأ عادة في مدارس بلادي.

ذات مساء، بينما كنت أتمشى في حديقة رودو، على ضفة نهر-بحر مونتيفيديو، وجدت نفسي فجأة محاطاً بحشد صاخب من الأطفال، يرتدون زيهم المدرسي مع شريطته الزرقاء المعقودة.

كان الأطفال يصرخون:

- هذا هو السيد صاحب النيران! هذا هو السيد صاحب النيران!

ذلك المساء، ومن سرب أولئك الأطفال، مُنحت لقب النبالة الوحيد الذي تلقيته في حياتي.

***

الأول من أيار هو اليوم الأكثر عالمية من كل الأيام.

العالم بأسره يتوقف مشلولاً لتكريم العمال الذين أعدموا شنقاً في شيكاغو لارتكابهم جريمة رفض العمل أكثر من ثماني ساعات يومياً.

في رحلتي الأولى إلى الولايات المتحدة فوجئت بأن الأول من أيار هو يوم كغيره من الأيام الأخرى، وحتى شيكاغو نفسها، حيث وقعت المأساة، تبدو كأنها لا علم لها بالأمر. وقد اعترفتُ في كتاب المعانقات بأن هذا الفقدان للذاكرة يوجعني.

بعد زمن طويل من ذلك، تلقيت رسالة من ديانا بيرك وليو روسنباوم من شيكاغو.

لم يحتفلا قطّ بهذه المناسبة، لكنهما في عام 2006، لأول مرة، مع حشد لم يُر من قبل، أقاموا تكريماً لأولئك العمال الذين دفعوا على المشنقة ثمن شجاعتهم.

شيكاغو تعانقك، هذا ما تقوله لي رسالتهما.

***

كانت ماريه دومينيك باروت أستاذة في مدرسة بجنيف.

في منتصف العام 1995، أخبرتني أن حريقاً دمر المدرسة، لم يبق منها سوى كومة حديد يتصاعد منها الدخان. وأخبرتني أن أحد الأساتذة تحدى في اليوم التالي قرار حظر الدخول إلى تلك الأنقاض، ورجع من هناك ومعه كتاب نصف محترق. كانت الكتاب مسوداً جداً، ولكن لا يزال بالإمكان، بطريقة ما، قراءة العنوان: Memoire du feu ذاكرة النـ.

إنه الجزء الأول من ذاكرة النار، في طبعة فرنسية، وهو الشيء الوحيد الذي نجا من الحريق.

وفي رسالتها، أخبرتني الأستاذة:

- بدا الأمر كما لو أن النار قد أرادت التوقيع على العمل الذي قامت به.

وأضافت:

- ذكّرني هذا بعبارة جان كوكتو، حين سألوه ما الذي سينقذه

من بيته إذا ما تعرض للاحتراق. فأجاب: «النار».

***

في المهمة الصعبة لقول الكثير بالقليل ساعدني كثيراً، بلا أية رحمة، هيلينا بيياغرا وفرناندو رودريغيث.

لقد كان فرناندو عشبة برية، ولد في بيت فقير، وبقليل أو بلا أي شيء من التعليم الرسمي، لكنه كان يتمتع بحاسة شم حادة في تحديد الكلمات الزائدة.

حين كتبت الجزء الثاني من ذاكرة النار، واجهتُ التحدي في أن أروي بكلمات قليلة جداً قصة كاميلا أوغورمان والكاهن لاديسلاو غوتيريث، بطلا فضيحة هزت مدينة بوينس ايريس في أواسط القرن التاسع عشر، وانتهت بإعدامهما رمياً بالرصاص بجريمة الحب.

من الصعب جداً التحدث عن الحب، فما بالك بالتحدث عنه دون الاستفاضة بتذوقه.

فرناندو الذي كان يعيش معنا في البيت، يرفض كل شيء:

- هنالك الكثير من الحصى بين العدس - كان يقول لي ويكرر القول، ولكثرة ما محوت من كلمات غير مجدية، من تلك الحصوات التي في العدس، اختزلت قصة ذلك الحب المدان إلى سطر واحد في نهاية الأمر.

عندئذ، أخيراً، تقبل فرناندو الأمر.

ذلك السطر الوحيد يقول:

- إنهما اثنان بالخطأ وقد صححهما الليل.

***

ثُلاثيتي التي تحمل عنوان ذاكرة النار ولدت من قصيدة لقسطنطين كافافيس. فبينما كنت أقرأ الشاعر اليوناني العظيم المولود في الاسكندرية، أحسستُ بالتحدي: لماذا لا أُطلَّ على العالم من ثقب المفتاح؟ لماذا لا أكتب الماضي برواية القصة الكبرى انطلاقاً من القصة الصغيرة؟ انتصار ماركو أنطونيو في اليونان، في قصيدة كافافيس، يُروى من وجهة نظر تاجر بائس يحاول أن يبيع شيئاً، ممتطياً متن حمار، ولا يسمعه أحد.

***

في جولاتي كحكاء حكايات، كنت أقرا قصصي ذات ليلة في مدينة أورينسي الغاليسية.

كان هنالك سيد ينظر إليّ وهو مقطب الجبين، بعينين لا ترمشان، في الصف الأخير للجمهور: له وجه فلاح مدبوغ بالعمل وبالأيام، ويبدو غاضباً إلى أقصى الحدود.

عندما انيهت القراءة، اقترب نحوي بخطوات بطيئة، كان ينظر إليّ بثبات، كمن يريد أن يقتلني. لكنه لم يقتلني.

قال لي:

- كم هي صعبة دون ريب الكتابة بهذه السهولة.

وبعد هذه العبارة، الأكثر حكمة في النقد الأدبي أتلقاها في حياتي كلها، أدار لي ظهره وانصرف دون تحية.

***

كتبتُ «مرايا» انطلاقاً من حلم.

أحلامي بصورة عامة تكون عادية ومتواضعة بحيث لا يمكن البوح بها. تأخر عن رحلات طيران، معاملات بيروقراطية، مدن لا أعرفها، سقوط من طابق عاشر...

أما زوجتي هيلينا فلها أحلام عجيبة ومُذلة بالنسبة إليّ. موعد تناول الفطور محزن جداً لأنها تروي لي أحلامها المناقضة تماماً لأحلامي، حيث أتشاجر بكآبة مع موظف لأنني لا أفهم ما يقوله، أو أتخلف بكل بساطة عن موعد الطائرة.

فتعلق هي:

- آه، تخلفتَ عن الطائرة... أنا رأيت حلماً عن مطار. حلمتُ أننا كنا كلانا معاً نقف في صف طويل، طويل جداً. وكل مسافر يحمل وسادة تحت إبطه. تمرر الوسائد عبر آله تقرأ أحلام الليلة الماضية، أي أن كل وسادة تتضمن الأحلام والآلة تكشف عن الأحلام الخطيرة.

وتقول لي بكل تواضع:

ـ أظن أن لذلك الأمر علاقة بعدم الأمان العام.

أتناول رشفة من القهوة بالحليب، أنفي نفسي إلى الحمام لمدة نصف ساعة، أحاول العودة إلى الحياة برأس مرتفع، ولكنني أجد صعوبة.

ومع ذلك، رأيت ذات مرة حلماً جيداً، وهو الحلم الذي أفسح المجال لظهور كتاب «مرايا». كنت أصعد إلى سيارة أجرة في الحلم وآمر السائق:

ـ أوصلني إلى الثورة الفرنسية. خذني إلى حيث أولمبيا غوغس وهي في طريقها إلى المقصلة.

انطلق السائق دون أي تعليق. كنت أريد رؤية أولمبيا في لحظة صعودها إلى المقصلة وقولها جملة بديعة جداً، أريد السماع والرؤية، رؤيتها كيف تقول:

ـ إذا كان بإمكاننا نحن النساء أن نصعد إلى منصة الإعدام، فلماذا لا يمكن لنا الصعود إلى المنابر؟

وعودة إلى الحلم، فقد كنت هناك مع سائق التكسي وأمرته:

ـ خذني الآن إلى البرازيل، إلى كونغونهاس دو كامبو. أريد رؤية أليجادينو وهو يبصق نبوءاته..

وإلى هناك توجه بي. وأقول على الهامش، تصوروا كم هي

مفارقة جميلة: فأليجادينو، أقبح رجل في البرازيل، أبدع أعظم جمال، الفن الكولونيالي الأمريكي. الرجل القبيح أبدع أسمى جمال.

وعندئذ صرت أريد معرفة كل ذلك، ولكن برؤيته على هذا النحو، حضوراً. وكان سائق التكسي ينصاع لتعليماتي، فكنت في الحلم أجوب دروب العالم، بلا أية حدود، لا حدود الخرائط ولا حدود الزمن. ومن هناك انبثقت فكرة الكتاب: فلأنني حلمت به، ولم يعد هنالك شك في أنني سأتمكن من كتابته.

***

في ليلة أخرى من ليالي حكاية الحكايات تلك، قرأتُ بعض القصص أمام طلاب مكسيكيين في الجامعة.

واحدة من قصص كتابي أفواه الزمن، تروي أن الشاعر الإسباني فيدريكو غارسيا لوركا قد أعدم رمياً بالرصاص وحُظرت أعماله خلال ديكتاتورية فرانكو الطويلة، وأن فريق مسرحيين من أروغواي اقترف التهور الجميل بتقديم أحد أعمال الشاعر في مسرح بمدريد، بعد سنوات طويلة من الصمت الإجباري. وفي نهاية العرض المسرحي، لم يصفق الجمهور الإسباني، أو بعبارة أدق: صفق بالأقدام، بخبط الأقدام على الأرض، فسيطر الذهول على الممثلين الأروغوائيين. ولم يفهوا شيئاً.

هل كان تمثيلهم سيئاً إلى هذا الحدّ؟ أيستحقون ذلك الاحتجاج؟

بعد زمن طويل، في مونتيفيديو، حين روت لي تشينا ثورييّا القصة، وكانت ضمن فريق الممثلين المتهورين، تصورتُ أن ذلك الفعل لا يمكن أن يكون صحيحاً. ولكنني ما لبثت أن فكرت على الفور: ربما أن ذلك الرعد المدوي على الأرض كان موجهاً إلى المؤلف الشاعر الذي أُعدم لأنه أحمر، ولأنه شاذ جنسياً، ولأنه غريب الأطوار. ربما كانت طريقة للقول له:

- كي تعرف يا فيدريكو كم أنت حيّ.

عندما رويتُ القصة في جامعة مكسيكو، حدث لي ما لم يحدث قطّ في مناسبات أخرى رويت فيها القصة، في عدة مدن إسبانية أندلسية وأمكنة كثيرة أخرى: الطلاب المكسيكيون صفقوا بالأقدام، ستة آلاف قدم خبطت على الأرض بالروح وبالحياة. وهكذا أكملوا قصتي وأكملوا ما تروي قصتي، كما لو أن ذلك يحدث في مسرح بمدريد، قبل سنوات مضت. الدوي نفسه على الأرض، والطريقة نفسها في القول:

- كي تعرف يا فيدريكو كم أنت حيّ.

***

في حديث، أمام طلاب البوليتكنيك، كنت برفقة كلب يدعى كانيلوس.

كان يقبع عند قدميّ على المنصة. لم أكن أعرفه، ولكن كان لدية ما يكفي من الصبر للاستماع لي، برأس منتصب، منذ البدء حتى النهاية. لقد كان كانيلوس كلباً من ماركة كلب، إنه كلب متشرد، لجوج، عنيد، لا يتغيب أبداً عن أية مظاهرة طلابية، ويكون في مقدمة الجميع دوماً، متحدياً الشرطة.

بعد سبع سنوات، في العام 1910، انفجر الغضب اليوناني. وكان الطلاب على رأس الاحتجاج ضد مبيدي البلدان الذين يجبرون اليونان على التكفير عن خطايا وول ستريت، وعلى رأس الصخب الشعبي، مرئياً وسط الغازات والنيران، كان هنالك كلب. تعرفت عليه في الصور. إنه كانيلوس. لكن أصدقائي اليونانيين قالوا لي إن كانيلوس قد مات منذ نحو عام ونصف.

فأوضحت لهم أنهم مخطئون. فذلك الكلب المحتج، ذلك المتشرد المهلهل، هو كانيلوس. وأن اسمه صار الآن لوكانيكوس، من أجل تضليل العدو.

***

قبل سنوات من تحول سلفادور ألليندي إلى رئيسٍ لتشيلي، حالفني الحظ بمرافقته في رحلة إلى الجنوب.

لم أكن قد رأيت الثلج من قبل قطّ. كانت تلك هي المرة الأولى. وبينما نحن نشرب أنخاب نبيذ، برشفات صغيرة، نرفع الأنخاب بينما الثلج يهطل بنعومة، على شكل ندف قطنية

بطيئة، في الجانب الآخر من النافذة.

تلك الليلة، في بونتا أريناس، أعطاني ألليندي الخطاب الذي سيلقيه في مهرجان الحملة الانتخابية، كي أقرأه.

في اليوم التالي، وسط هتافات الحشد، استرعت انتباهي جملة لم تكن موجودة في النسخة التي قرأتها.

ربما كانت نبوءة غير إرادية.

من يدري.

فقد قال ألليندي:

- سيكون الموت أمراً يستحق العناء، في سبيل كل هذه الأشياء التي لا تستحق الحياة أن تُعاش من دونها.

***

منذ عدد لا بأس به من السنوات، وفي أسبوعية «مارتشا»، تعلمتُ أشياء كثيرة من كارلوس كيخانو.

لن أنسى أبداً مساء ذلك يوم، حين كنا نستمع إلى خطابات السياسيين، تبثها الإذاعة، في أوج الحملة الانتخابية.

يَعِدُونَ بالكثير، يقولون القليل، ولا يؤمنون بأي شيء تقريباً.

كان دون كارلوس يسمع ويصمت. إلى أن دمدم أخيراً:

- الخطيئة الوحيدة التي لا مغفرة لها هي الخطيئة ضد الأمل.

«أبناء الأيام» هو كتاب له شكل التقويم. قصة تنبثق في كل يوم من صفحاته. أو بعبارة أخرى: لدى كل يوم من الأيام قصة يرويها.

سونيا بريكثيا قرأته باحثة عن يوم ميلادها الحقيقي: ليس اليوم الذي ولدت فيه، وإنما اليوم الذي تختاره لتولد فيه.

منذ ذلك الحين وسونيا تحتفل في كل ثالث عشر من أيار/ مايو، مع أنه ليس اليوم المثبت في وثائقها الشخصية.

اختارته لأنها أُعجبت بالقصة التي يرويها هذا اليوم.

وهذا اليوم يروي ما علمني إياه منذ سنوات عجوز حكيم، هناك في الأدغال حيث يولد نهر أورينوكو:

من أجل أن ترى عوالم العالم، غيّر عينيك.

كي تسمع العصافير غناءك، استبدل حنجرتك.

***

في «أبناء الأيام»، رويت قصة شخص أفريقي استثنائي، ملك داهومي، آغاجا ترودو، رفض أن يبيع عبيداً وشن حرباً على المتاجرين باللحم البشري.

بعد قليل من نشر الكتاب، تلقيت رسالة من كارلوس فيو: هو نفسه كان قد زار متحف القصر الملكي بعاصمة داهومي، ولم يكن هناك أي أثر لذلك الملك. آغاجا ترودو مُسح من التاريخ،

لأنه ارتكب خطيئة ضد التجارة الأفر ربحاً للقوى الأوربية العظمى في زمانه.

وأخبرني كذلك أن أسوأ عدوة لذلك الملك هي من كانت امرأة أبيه، وكانت تطمع بالعرش، وكانت أشد المتحمسين في الدفاع عن الحق ببيع البشر. وعندما حظر آغاجا ترودو العبودية، أقدم على إستثناء واحد فقط: باعها هي نفسها.

***

بين القصص الكثيرة المجتمعة في كتاب «الكلمات المتجولة»، هنالك واحدة تروي مغامرات طفل وظله.

وتنتهي القصة بالقول:

والآن، بعد مرور السنوات، وبعد أن خلّف الطفل طفولته وراءه منذ زمن طويل، يشعر بالأسي من أن يموت ويترك ظله وحيداً.

إحدى القارئات، تدعى دايدي دونيلي، كتبتْ إليَّ تطلب مني ألا أقلق: فالظل لن يبقى وحيداً، لأن ظل الظل سيتولى مرافقته.

***

في الكتاب الأخير من ذاكرة النار، رويتُ قصة طفل في الخامسة من عمره، ابن سجين سياسي أورغوائي، يدعى ميلاي تكريماً لقرية فيتنامية مسحها الغزو العسكري الأمريكي عن الخريطة.

منذ ذلك الحين، تلقيت عدة رسائل من آباء أطفال حديثي الولادة، يريدون تسميتهم ميلاي ولا يستطيعون لأن البيروقراطية تحول دون ذلك. من مدينة روساريو بالأرجنتين، روت لي نيليدا غوميث نكباتها:

- ابنتي ما زالت بلا هوية - قالت لي في رسالة بتاريخ آذار 1999.

لأن هذا الاسم الغريب غير وارد في سجل أسماء القديسين ولا يشكل جزءاً من التقاليد الموثقة في السجل الوطني للأسماء. ليس من حق ميلاي أن تُسمى ميلاي.

***

في العام 2012 كنتُ أوقع كتاباً في كاسا دِل ليبرو ببرشلونة.

- لمن الإهداء؟

أسمعُ الاسم، وأوقع.

أحياناً أضيف شيئاً، رسماً، تعليقاً، شيئاً يساعدني على الشعور بأنني لست روبوتاً يكرر التوقيع نفسه بيد أورتوبيدية.

واصلتُ هكذا، من كتاب إلى كتاب.

إلى أن سألتُ شاباً، كان قد مضى عليه وقت لا بأس به وهو يقف في الدور:

- لمن؟

وتلقيت جواباً غير متوقع:

ـ إلى نهر بارّانا.

أنا لم أُهدِ أي كتاب إلى نهرٍ من قبل.

كان ذلك الكتاب هو الأول.

***

منذ سنوات بعيدة، حين زرتُ كهوف ألتاميرا، انبهرت أمام دقة تلك الرسوم، ولم أجرؤ على السؤال بصوت عالٍ:

ـ ألا يمكن لهذه الروائع أن تكون من عملهن هنَّ وليس من عملهم هم؟

السؤال تولد في ذهني، ولِيس أكثر من ذلك، ولكنني حين ضمنته في أحد كتبي لم أَعدم من يتهمني بالديماغوجية النسوية.

واصلت السنون مرورها، وفي العام 2013، تَوَّجَ عالمٌ أمريكي، دِيان سنو، عدة سنوات من الأبحاث في عدة كهوف تعود إلى عصور ما قبل التاريخ:

ـ لقد توصلتُ في المحصلة إلى أن معظم تلك الرسوم أنجزتها نساء وليس رجال.

وعللَ ما أكده.

لقد ولد تساؤلي من التخيل المحض. وقد وُجد الآن من يرافقة.

موجز

سيرة ذاتية كاملة جداً

ولدت في 3 أيلول/سبتمبر عام 1940، بينما كان هتلر يلتهم نصف أوروبا ولم يكن العالم ينتظر أي خبر طيب.

مذ كنت صغيراً جداً، كانت لدي سهولة كبيرة في اقتراف الأخطاء. ولشدة ما أنا حشري، انتهيت إلى إثبات أنني سأخلف أثر مروري في العالم.

وبالنية السليمة لتعميق الأثر، صرت كاتباً، أو حاولت أن أصير.

أشد أعمالي نجاحاً هي ثلاثة مقالات يجري تداولها باسمي على الانترنت. الناس يوقفونني في الشارع لتهنئتي، وفي كل مرة يحدث ذلك أبدأ بنتف بتلات زهرة أقحوان:

- أقتل نفسي، لا أقتل نفسي، أقتل نفسي...

ولا واحد من تلك المقالات كتبته أنا.

ملامح موجزة عن المؤلف

يمكن لي أن أكون بطلاً دولياً للساهين، لو وجدت هذه البطولة: كثيراً ما أخطئ في اليوم، وفي الساعة، وفي المكان، أجد صعوبة في التمييز بين الليل والنهار، وأتغيب عن المواعيد لأنني أظل نائما.

ولادتي أكدت أن الرب غير معصوم عن الخطأ؛ ولكنني لا أخطئ دوماً مع ذلك حين يكون علي أن أختار من أحبهم من الناس وما أؤمن به من أفكار.

أمقت النائحين، أكره الشاكين، أقدر من يعرفون كيف يتحملون بصمت ضربات الزمن السيئ، ولحسن الحظ أنني لا أفتقد على الدوام صديقاً يقول لي واصلِ الكتابة وحسب، وأن التقدم في العمر يساعد، وأن الصَّلع يحدث بسبب التفكير كثيراً وأنه مرض مهني.

الكتابة تُتعب، ولكنها تواسي.

لماذا أكتب/1

أريد أن أروي لكم قصة كانت مهمة جداً بالنسبة لي: التحدي الأول الذي واجهني في مهنة الكتابة.

حدث ذلك في القرية البوليفية ياياغوا. لقد أمضيت فترة هناك، في المنطقة المنجمية. في السنة السابقة كانت قد وقعت مذبحة سان خوان هناك بالذات، حين أعدم الجنرال بارينتوس، رمياً بالرصاص، عمال المناجم الذين كانوا يحتفلون بليلة سان خوان، يشربون ويرقصون. ومن أعلى الهضاب المحيطة بالقرية، أمر الدكتاتور برميهم بالرشاشات.

كانت مجزرة فظيعة، وقد وصلتُ إلى هناك بعد سنة تقريباً، في العام 1968، وظللتُ لبعض الوقت بفضل مهاراتي كرسام. لأنني كنت أرغب على الدوام، بين أمور أخرى، أن أرسم، ولكن لم يخرج معي الرسم قطّ جيداً إلى حدّ أشعر فيه بأن الفضاء مفتوح بين العالم وبيني.

الفضاء بين ما أستطيعه وما أريده كان واسعاً جداً، ولكنه كان يكفيني، إلى هذا الحد أو ذاك، لبعض الأمور، مثل رسم الصور

على سبيل المثال. وهناك، في ياياغوا، رسمت صوراً لجميع أطفال عمال المناجم ورسمت ملصقات الكرنفال، الاحتفالات العامة، جميعها. لقد كنتُ مؤلف أغنيات جيد، وقد احتضنوني والحقيقة أنني أمضيت وقتاً طيباً جداً، في ذلك العالم الجليدي البائس، وسط فقر يضاعفه البرد الشديد.

وجاءت ليلة الوداع. وكان عمال المنجم أصدقائي، فأقاموا لي عندئذ حفلة وداع مع كثير من الشراب. شربنا بيرة تشيتشا ونبيذ سينغاني، ونوع من شراب الغرابا البوليفي، شراب لذيذ جداً لكنه رهيب؛ وكنا نحتفل هناك، نغني، نروي نكاتاً وطرائف، ونلعب من هو الأسوأ، وكنت أعرف أنه في الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً، لا أتذكر جيداً، ستدوي صفارة دعوتهم إلى العمل، إلى المنجم، وهناك سينتهي كل شيء، ساعة الوداع.

وبينما تلك اللحظة تقترب، أحاطوا بي كمن يريدون اتهامي بأمر ما. ولكن لم يكن ذلك لاتهامي بأي شيء. أرادوا أن أخبرهم كيف هو البحر. قالوا:

ـ أخبرنا الآن كيف هو البحر.

وقفتُ مذهولاً للحظات، لأنه لم يخطر لبالي أي شيء. كان المنجميون رجالاً محكوم عليهم بالموت المبكر بسبب غبار السيليس في باطن الأرض. إذ كان متوسط عمر العاملين في الأنفاق آنذاك من 30 إلى 35 عاماً، ولا يمكن تجاوز هذا الرقم.

كنت أعرف أنهم لن يروا البحر أبداً، سيموتون قبل وقت طويل من أن تتاح لهم أية فرصة لرؤيته، كما أنهم محكومون ببؤس عدم القدرة على الخروج من قرية ياياغوا البائسة تلك. لقد كنت مسؤولاً عن إحضار البحر إليهم، عن العثور على كلمات تكون قادرة على جعلهم يبتلّون بالماء. وكان ذاك هو أول تحد أواجهه ككاتب، انطلاقاً من اليقين بأن الكتابة، قد تنفع لشيء ما.

ملاك الرب

وأنا أيضاً كنت طفلاً، كنت «ملاكاً من ملائكة الرب».

في المدرسة، علمتنا المعلمة أن الفاتح الإسباني «بالبوا»، قد رأى من فوق إحدى قمم جبال بنما، المحيط الهادي من جهة، والمحيط الأطلسي من الجهة الأخرى. وقد كان هو، كما قالت المعلمة، أول إنسان يري البحرين العظيمين معاً.

رفعت يدي:

ـ يا آنسة، يا آنسة.

وسألتها:

ـ والهنود، هل كانوا عمياناً؟

فكان أول طرد في حياتي.

لماذا أكتب/2

إذا لم تخنى الذاكرة، أظن أن جان بول سارتر هو من قال:

الكتابة شغف غير مُجدٍ.

أحدنا يكتب دون أن يدري جيداً لماذا يفعل ولأي هدف، ولكن يُفترض أن للأمر علاقة بالقضايا التي يؤمن بها المرء أكثر من سواها... بالشؤون التي تؤرقه.

نكتب استناداً إلى بعض الأمور المؤكدة، وهي ليس مؤكدة بدوام كامل أيضاً. فأنا على سبيل المثال، متفائل حسب ساعات اليوم.

فحتى انتصاف النهار، أكون متفائلاً بصورة كافية. بعد ذلك، منذ الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة، تصل روحي إلى القدمين. فأعيد وضعها في مكانها من جديد عند الغروب، وفي الليل تسقط وتنهض عدة مرات، حتى صباح اليوم التالي، وهكذا...

لدى انعدام ثقة كبير بالمتفائلين بدوام كامل أي full-time.

إنهم يبدون لي حصيلة خطأ من أخطاء الآلهة.

حسب آلهة المايا، جميعنا صُنعنا من ذُرة، لهذا لنا ألوان متعددة مثلما هي الذرة. ولكن كانت هناك قبل ذلك محاولات خرقاء لصنع البشر، وقد خرجت سيئة جداً. إحداها أعطت، في المحصلة، رجلاً وامرأة من خشب.

الآلهة كانوا ضجرين وليس لديهم من يتبادلون الحديث معه، لأن أولئك البشر كانوا مثلنا، ولكن لم يكن لديهم ما يقولونه ولا كيف يقولونه، لأنهم بلا همّة. وقد فكرتُ على الدوام في أنهم ما داموا بلا همّة فإنهم بلا خمود همة. لأن خمود الهمّة هو الدليل على امتلاك الهمة. وهكذا لن يكون سيئاً جداً أن تسقط روح أحدنا على الأرض، لأن في ذلك دليلاً آخر على أننا بشر، بشر وحسب.

وكبشري صغير أتجرجر بالهمة أو خمود الهمة، حسب ساعات اليوم، أواصل الكتابة، ممارساً هذا الشغف غير المجدي.

الصمت، رجاءً

تعلمتُ الكثير من خوان كارلوس أونيتي، السارد الأروغوائي، حين كنتُ مبتدئاً في المهنة.

لقد كان يعلمني، وهو ينظر إلى السقف مدخناً. كان يعلمني بصمت أو بأكاذيب، لأنه كان يستمتع بإضفاء أهمية

على كلماته... كلماته القليلة التي كان يقولها، ناسباً إياها إلى حضارات قديمة جداً.

في واحدة من ليالي الصمت تلك، ما بين أعقاب سجائر ونبيذ تَشمع فوري للكبد، كان المعلم، كما هي العادة، مستلقياً، وكنتُ جالساً بجانبه، بينما الوقت يمضي دون أن يعيرنا أدنى اهتمام.

كنا على تلك الحال حين قال لي أونيتي أن أحد الأمثال الصينية يقول:

ـ الكلمات الوحيدة الجديرة بأن توجد هي الكلمات الأفضل من الصمت.

أشكُ في أن يكون المثل صينياً، لكنني لم أنسه.

ولم أنسَ كذلك ما روته لي إحدى حفيدات غاندي، كانت بعد سنوات من ذلك أثناء زيارة لها إلى مونتيفيديو.

التقيت بها في مقهاي المعهود، المقهى البرازيلي، وهناك، بينما هي تتذكر طفولتها، أخبرتني أن جدها قد علمها الصيام عن الكلام: في يوم من كل أسبوع، لم يكن غاندي يسمع الكلام أو يقوله. لا شيء بالمطلق.

في اليوم التالي، يكون للكلمات وقع آخر.

الصمت الذي يتكلم ساكتاً، يُعَلِّم القول.

الكتابة

من أونيتي تعلمتُ، أيضاً، مهنة الكتابة يدوياً.

يدوياً أشتغلِ كل صفحة، من يدري كم من المرات، كلمة فكلمة، إلى أن أُبيض، على الحاسوب، النسخة الأخيرة التي تظلّ دوماً النسخة ما قبل الأخيرة.

لماذا أكتب/3

من أجل البدء، لدي اعتراف: مذ كنتُ طفلاً رغبتُ في أن أكون لاعب كرة قدم. وقد كنت أفضل المفضلين، كنت اللاعب الرقم واحد، ولكن في الأحلام فقط، وأنا نائم.

عند الاستيقاظ، ما إن صرتَ أخطو خطوتين وأركل حجراً على الطريق، حتى تأكدتُ من أن لعب كرة القدم ليس لي. كان ذلك واضحاً: لم يكن أمامي سوى تجربة مهنة أخرى. حاولتُ مهناً عديدة، ولم أوفق، إلى أن بدأت أكتب في نهاية المطاف، بدأت أكتب لأرى إن كان يخرج معي شيء.

حاولتُ، ومازلت أحاول، تَعَلُّم التحليق في العتمة، مثل الخفافيش، في هذه الأزمنة القاتمة.

حاولت، وأحاول، أن أتجاوز عجزي عن أن أكون محايداً، وعجزي عن أن أكون موضوعياً، ربما لأنني أرفض أن أتحول إلى شيء غير مبال بالشغف الإنساني.

حاولتُ، ومازلت أحاول، أن أكتشف النساء والرجال المفعمين بإرادة العدالة وإرادة الجمال، في ما وراء حدود الزمن

والخرائط، لأنهم مواطنيَّ ومعاصريَّ، أينما ولدوا وفي أي زمن عاشوا.

حاولت، ومازلتُ أحاول، أن أكون عنيداً لأواصل الإيمان، على الرغم من كل المشقات، بأننا نحن البشر، مصنوعون بصورة سيئة جداً، ولكن صُنعنا لم يكتمل بعد. ولأواصل الاعتقاد كذلك بأن هناك في قوس قزح البشري ألواناً أكثر ألقاً بكثير من ألوان قوس السماوي، لكننا عميان، أو غُشي بصرنا بكلمة أدق، بفعل تقليد طويل بتار.

في نهاية المطاف، وبإيجاز، أقول إنني أكتب محاولاً أن أكون أقوى من الخوف أو من الخطأ أو من العقاب، في لحظة الخيار في المعركة الأبدية بين عديمي الجدارة والناقمين.

أَردتُ، أُريدُ، أتمنى

العيش بدافع الفضول

كلمة حماسة (entusiasmo) تتحدر من اليونان القديمة، وتعني: امتلاك الآلهة في الداخل.

حين تقترب مني غجرية وتمسك بيديَّ لتقرأ طالعي، أدفع لها الأجر مضاعفاً كي تتركني بسلام: لا أعرف طالعي وقدري، ولا أريد معرفته.

إنني أعيش وأحيا بدافع الفضول.

هكذا ببساطة. لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، ما هو المستقبل الذي ينتظرني. أفضل ما في مستقبلي أنني لا أعرفه.

الباب الأخير

منذ أن اضطجعتْ لتنام آخر مرة، لم تشأ غوما مونيوث النهوض.

ولم تشأ حتى أن تفتح عينيها.

في إحدى يقظاتها النادرة، تعرَّفتْ غوما على ابنتها التي كانت تشد على يدها كي تمنها هدأة النوم.

عندئذ تكلمت، أو أنها دمدمت بكلمة أدق:

- يا له من أمر غريب، أليس كذلك؟ كان الموت يخيفي. لم يعد كذلك، إنه يسبب لي الفضول الآن. كيف سيكون؟

سألت كيف سيكون، واستسلمت للذهاب نحو أعماق الموت.

كوابيس

الجبلُ رواه لصديقٍ، وهذا رواه لي.

كان الرجل يتسلق الجبل، من يدري منذ متى كان يرغب في ذلك ولا يستطيع. كان يتسلق ويواصل المشي صعوداً إلى أعلى، يصعد ويصعد، ومع كل خطوة يعلو السفح أكثر فأكثر وتصبح قدرة الساقين أقل فأقل.

- التراخي ممنوع - كان يقول، مصدراً الأمر بخفوت يبدو صمتاً؛ لكنه يواصل ويواصل. كلما اقترب أكثر من القمة، يزداد شعوره بالخوف من المابعد الذي يدعوه من العمق البعيد.

وأخيراً استسلم للوقوع أرضاً، استسلم للذهاب.

السفح نزولاً، لا نهاية له.

وراءه بقى العالم، عالمه، أناسه، وحتى لو كان سقوطه شأناً من شؤون القدر، فإنه لم يستطع التوقف عن شتم نفسه، رعديد، جبان. وكانت الرحلة النهائية قد انتهت عندما فقدت يداه المجرحتان من الأحجار والشوك القدرة على الاستناد، وحملتاه: حملتاه إلى العدم، دون أن يقول وداعاً.

في نهاية كل نهار

تقدم الشمس وداعاً مذهلاً على الدوام، لا يتكرر فيه أبداً غسق الأمس أو الغد.

إنها الوحيدة التي ترحل بطريقة عجيبة جداً.

سيكون من الإجحاف الموت وعدم العودة لرؤيتها.

في نهاية كل ليل

إله أكبر يتلقى الشمس الوليدة.

يحملها على كاهله، ويأخذها إلى بيته، في غابة لاكاندونا، ومن أجل أن تأكل، يقدم لها فاصولياء وعجة وسردينا وبذور قرع، ويقدم لها قهوة.

وعندما تحين ساعة الوداع، يعيدها الإله إلى الأفق، حيث أرجوحة النوم التي تسلقي الشمس لتنام عليها.

العيش، الموت

أُرسل صورتي هذه، إلى ابنتي، البعيدة جداً. أريدها أن تأتي لتراني، وحين تصل إليّ، أريد أمامها أن أموت.

إنني عجوز ومريض. أمشي بقوة الريح.

(سجلها دافيد آسيبي عن أحد السكان الغواراني الأصليين في بوليفيا)

أردت، أريد، أتمنى

أن أمشي في جمال.

أن يكون هناك جمال أمامي

وجمال خلفي

وتحتي

وفوقي

وأن يكون كل ما حولي جمال

وجمال على امتداد طريقي

وأن أنتهي بجمال.

(من «نشيد الليل» لدى شعب ناباخو)

المحتويات

صيّاد القصص

ادواردو غاليانو
قصص قصيرة

في هذا العمل الذي أنهاه قبل سنة من وفاته، يخرج إدواردو غاليانو للصيد في الغابة التي هي العالم، ليعرض علينا ـ بقسوة، وسخرية، وعذوبة ـ حقيقة العالم الذي نعيش فيه، ويُعرّي بعض الوقائع التي لا نتوصل جميعنا إلى رؤيتها على الرغم من أنها موجودة وتحدث تحت أبصارنا.

وعلى الرغم من أنه معروف عن غاليانو تحفظه في الحديث عن نفسه، إلا أنه ينهي هذا الكتاب بحفنة من القصص البديعة والقوية المفاجئة، يقدم لنا فيها لمحات من سيرته الذاتية، من سنوات طفولته وشبابه، ورحلاته الأولى عبر بلدان أميركا اللاتينية، وعن الأشخاص الذين أثروا في حياته وكتابته.

الناشر


دار ورق للنشر والتوزيع
دبي - الإمارات العربية المتحدة
صندوق بريد : 91110 دبي
هاتف : 00971596595959


ISBN 978-9948-09-540-8
9 789948 095408